

أ.د. عبد الكريم بكار



خطوة
نحو التفكير القويم

ثلاثون ملمحاً في أخطاء التفكير وعيوبه

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الخامسة

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
(٢٠٠٩/١/١٦٤)

بكار، عبد الكريم
خطوة نحو التفكير القويم/ عبد الكريم حسن بكار - عمان: دار الأعلام، ٢٠٠٩.
(٢٠٦) ص. (سلسلة تنمية الشخصية؛ ٢)
ر.أ.: (٢٠٠٩/١/١٦٤).
الواصفات: / سيكولوجية الشخصية// الشخصية// علم نفس الأفراد/
* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية.
* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

(ردمك) ISBN ٩٧٨-٩٩٥٧-٤٧٩-٣١-٢



الأردن - عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ - مكتب ٦٠٥
تلفاكس ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ ص.ب: ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail: al_aalam@yahoo.com

تنمية الشخصية (٢)

خطوة
نحو التفكير القويم

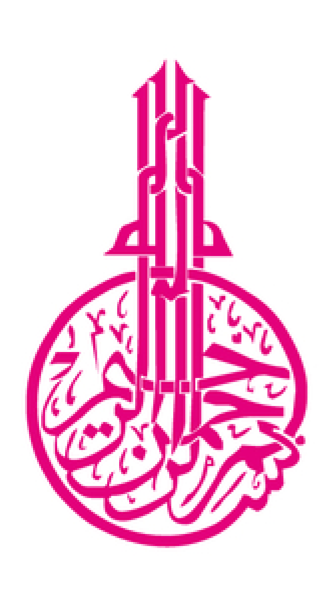
ثلاثون ملمحاً في أخطاء التفكير وعيوبه

الأستاذ الدكتور

عبد الكريم بكار



للنشر والتوزيع



مقدمة الناشر

بين يدي هذا الكتاب

بقلم: ياسين إبراهيم حمو

١



النهوض الذي ننشده ونحرص عليه ونعمل له مع جميع الخيِّرين في هذه الأمة يقوم أساساً على الإنسان المؤمن القوي الأمين... فالإنسان بهذه المواصفات: الإيمان، القوة، الأمانة، هو الهدف... والإنسان بهذه المواصفات هو الوسيلة..

وكل شيء غير الإنسان المؤهل من: أرض وإمكانات، وزراعة وصناعات، وعلم وتكنولوجيا، واجتماع وسياسية واقتصاديات، وغير ذلك مما قلّ أو كثر، إنما هو تحصيل حاصل.. وكل ذلك يتبع الإنسان الذي هو محور الحضارة، فهو منطلقها ووسيلتها وهدفها..

والوحي الذي أنزله الله تعالى، جعل الإنسان محور اهتمامه، فله توجه بالخطاب، يريد صياغته فكراً ونفساً وروحاً وجسداً، يبتغي صلاحه ورفع سويته وإعداده إعداداً يؤهله لحمل الأمانة المنوطة به.. فهو يتوجه إليه ويعدّه من جهة، ثم يعتمد عليه في تحقيق رسالته في الأرض بعد ذلك..

وعلى هذا فإن اهتمامنا بتنمية الشخصية لم يكن بدعاً من القول أو العمل، وإنما هو في صلب المشروع النهضوي الإسلامي، الذي يعلم بأن تنمية الشخصية

لا تقوم على التوعية بقضايا الإيمان واليقين والالتزام بشعائر الإسلام التعبدية فحسب، وإنما هو إلى جانب هذا كله يقوم على تنمية قدرات الإنسان، وإمكاناته الشخصية عقلاً وروحاً ونفساً وبدناً، لتصبح شخصيته قوية قادرة على حمل الرسالة وأعبائها بكفاءة واقتدار.

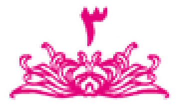
و«المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[1].



عندما نتحدث عن تنمية الشخصية، فإن هذه التنمية تتم من خلال تنمية عناصر الشخصية ومكوّناتها.. وإن أبرز وأهم مكونات الشخصية هو العقل الذي هو أداة التفكير، فإذا عملنا على تنمية العقل ليقوم بوظيفته المنوطه به، كان ذلك في الواقع تنمية للشخصية من خلال تنمية جانب التفكير في الإنسان..

ولعل تنمية التفكير لدى الإنسان وإصلاحه تعد أساساً في الإصلاح والتنمية التي تستهدف الإنسان، لأن جوانب الشخصية الأخرى كلها تابعة للتفكير الذي هو السيد وباقي مكونات الشخصية تبع له.

فإذا ما حسنت ملكة التفكير لدى الإنسان كان ذلك أساساً ومنطلقاً ليحسن كل ما عداه..



التفكير مطلب، وهو ضرورة إنسانية، وضرورة شرعية، فبدونه يفقد الإنسان إنسانيته ويصبح كما قال الله عن الذين امتلكوا أدوات السمع

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



والبصر والفهم ولكنهم عطلوها: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩]. ولفهم ما أنزل الله، ولمعرفة النفس والواقع والتاريخ، ولحسن تنزيل الحكم من الوحي على محله من الواقع، لا بد من التفكير، فهو ضرورة شرعية. ولعل الأستاذ العقاد - رحمه الله - كان محقاً عندما جعل عنوان واحد من كتبه: «التفكير فريضة إسلامية».

فالتفكير من حيث هو تفكير مطلب، وأمام إعراض عامٍّ في الأمة عن التفكير نحن بحاجة إلى إحياء الدعوة إليه، وإقناع الناس بضرورته وتربية الأجيال عليه.. ولكن القوامة في التفكير مطلب أيضاً لأن التفكير بحد ذاته قد يكون قوياً وقد يكون معوجاً.

لذلك كان المطلوب هو التفكير القويم.. والقرآن جاء ليهدي الإنسان إلى الأقوم من كل شيء، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهو يهدي إلى التي هي أقوم في مجال التفكير كما في غيره.. ويمكننا أن نلمس هذا في هدي القرآن الذي يأخذ بيد الإنسان إلى التي هي أقوم في جوانبه المختلفة..

٤

إذا كان التفكير القويم مطلباً نحاول تحقيقه ونحن نفكر في تنمية الشخصية، وهو مطلب عظيم، فلا بد أن نعلم بأن تحقيقه ليس رحلة قصيرة قريبة المنال، ما نفتأ نتمناها أو نتحدث عنها حتى تنجلي لنا الأمور وتستقيم لنا الطريقة.. وإنما هي رحلة طويلة وشاقة ولكنها ممكنة وممتعة.. وإنما هي خطوات متتابعة تبدأ

بخطوة وتستمر خطواتها التالية مدى الحياة، لا تنتهي ولا تتوقف، فطالما أن الإنسان موجود فهو مفكر، وطالما فكر فإنه بحاجة إلى أن يكون تفكيره قويماً، وهو في جميع مراحل حياته يسأل الله تعالى الاستقامة ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ وهذه الاستقامة التي يسألها ربه استقامة في كل شيء، ومن ذلك استقامة التفكير..

وعنوان هذا الكتاب يفترض أن محاولة الوصول إلى التفكير القويم رحلة طويلة، تبدأ بخطوة وتتلوها باقي الخطوات وهو خطوة نحو التفكير القويم، لا بد منها ولكنها غير كافية للوصول إليه.

٥

عندما نفكر في التفكير، فإن العقل يريد أن يعقل نفسه، ويقوِّم أداءه، وينقد طبيعة تكوينه وطريقته في العمل، والقواعد التي يقوم عليها والحدود التي تحدّه، والمؤثرات التي تؤثر فيه وعليه، والآفاق التي يمكن أن يرتادها وتلك التي ليس له فيها ما يدله ويهديه. والأخطاء والعيوب التي يقع فيها، والأمراض التي تعتريه.. وكل ذلك لعمري من أعقد الأمور وأصعبها منالاً، ومع هذا كان كل ذلك - وما زال - من مطالب العلماء والمفكرين عبر العصور، يجهدون به أنفسهم ويعملون ما وسعهم الجهد على الوصول إلى التفكير القويم، أو التفكير الموضوعي، أو التفكير الصحيح، أو التفكير العلمي، وما شابه ذلك من تسميات..

والمتتبع لما كتبه المؤلف - حفظه الله - حتى الآن وما يلمح إلى أنه يكتبه أو سيكتبه يرى أن قضية التفكير من قضاياه الأولى التي يجهد نفسه لبيان طبيعتها،

وتشخيص عيوبها وأمراضها، والتعرف إلى مشكلاتها وتعقيداتها المتراكمة، والبحث عن «قواعد» أو «طرائق» تعين الإنسان على تجاوز كل ذلك والوصول إلى التفكير القويم، أو التفكير الموضوعي.

والواقع أن هذه الطريقة هي طريقة الكبار العمليين من المفكرين والعلماء، الذين يتصدون لقضية كبيرة في حجم قضية «العقل» أو «التفكير» أو «النهوض» فيجعلونها مشروعهم الشخصي، يتفكرون فيه آناء الليل وأطراف النهار، يعيشونه نهاراً ويحلمون به ليلاً، ويهندسونه مع الأيام خطاً هنا وخطوة هناك، فيحذفون ويضيفون، ويأخذون الحكمة ضالتهم من هنا أو هناك، ويبتكرون ما تجود به قرائحهم المتيقظة حتى يصبح لهم مع الأيام بنياناً متميزاً يشار إليه بالبنان.

٦



إن بعض الناس يريد من العالم المفكر، أو من صاحب المشروع أن يفكر في صمت ثم يخرج على الناس بمشروع ضخم متكامل ناضج فيقدمه لهم نظرية متكاملة تحل لهم جميع المشكلات وتجيب على جميع التساؤلات.

وكثير من العلماء والمفكرين يتجاوب مع هذا التوجه وينتظر من نفسه أن يصوغ مشروعه الفكري النهضوي في مكتبه، حتى إذا ما تكامل بين يديه ووصل إلى نسخته الجاهزة المنقحة خرج به على الناس وقال لهم: هاؤم اقرؤوا كتابِيَهْ..

من أجل هذا فإن هذا البعض من الناس لا يعجبه شيء ولا يتفاعل مع شيء غير تام وغير متكامل، لأنه واقع تحت تأثير فكرة انتظار المشروع العميق

المتكامل المتقن، الذي يملأ العقل ويثلج الصدر ويريح النفس ويقطع الشك، ولهذا يحرم هذا البعض - وفيهم أذكياء ونابهون وأصحاب طاقات - أنفسهم من تنمية أنفسهم والمشاركة في صياغة مشروع فكري يحتاج تفاعلاً حقيقياً بين جمع كبير من العلماء والمثقفين..

وكذلك الكثير من العلماء والمفكرين، ينسون أنفسهم وهم ينتظرون المشروع الناضج ليخرجوا به على الناس، فيخسرون أعمارهم وتخسر أمتهم جهودهم وآراءهم التي تذهب معهم عندما لم يقدموها تدريجياً.

ومع أن الكاتب صاحب مشروع حضاري كما قدمنا، فإنه يعلم أن الطريق طويلة، ولا أحد يضمن استمرار الرحلة واستمرار القدرة على العطاء، ولهذا فهو يضع أساساً هنا، ولبنة هناك، ويطلق اليوم سؤالاً ويقترح عليه جواباً، ويضع هدفاً بعيداً ثم لا ينتظر طويلاً حتى يتحقق له ذاك الهدف، وإنما يصوغ أهدافاً مرحلية ويسعى إلى تحقيقها، فتثمر جهوده كتاباً يقرأه الناس فيتفاعلون معه، وكتيباً يتناول قضية ملحة يحللها ويبحث في طبيعتها ويبسطها ويعطي فيها رأياً أو يحل لغزاً، ثم يتركها ويترك معها قُرَّاءه وقد خطوا خطوة، واستفادوا فائدة، وخرجوا بعد اطلاعهم على عمله خيراً مما دخلوا فيه، وهذا لعمري ما يبتغيه كل صاحب قلم من ثمرات قلمه.

نرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب، وبهذه السلسلة، ويجزل المثوبة والأجر.



مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن المنهج الرباني الأقوم الذي أكرمنا الله – تعالى – به يوفر لنا إذا – فهمناه والتزمنا به على الوجه الصحيح – أرضية ممتازة تمكننا من التفكير على نحو ممتاز؛ لكن من طبيعة العمل في الأمور العقلية وأعمال التفكير والاستنباط وجود فراغات لا يمكن ملؤها إلا عن طريق الاجتهاد والذي يشوبه دائماً الظن والخطأ. ولا يخفى من وجه آخر أن علاقة انفعالاتنا بأدمغتنا ليست علاقة توافق دائماً حيث نجد في حالات كثيرة أن انفعالاتنا تسيطر على عقولنا، ونبدأ بالتفكير تحت تأثير رغباتنا وأهوائنا؛ مما يبعدنا عن الحقيقة، ويشوش رؤيتنا للأشياء. أضف إلى هذا طبيعة القصور الذي يعاني منه العقل البشري حيث يعجز عن إدراك المسائل الكلية، كما يصعب عليه – من غير زاد ثقافي جيد – التفريق بين الأشياء المهمة والتافهة، وبين الأشياء الآمنة والخطرة؛ مما يجعلنا حين نتعامل مع هذه المسائل نقع في الكثير من الخطأ وسوء التقدير.

ونتيجة لكل ما سبق فإن تشغيل العقل ينتج الأخطاء الفكرية والأوهام والضلالات، كما يفعل الماء حين نسقي به الزرع، فإنه لا ينمي الزرع فحسب ولكن يُنبت إلى جواره الأعشاب الضارة أيضاً.

ولهذا كله فليس أمامنا – إذا ما أردنا أن نحصل على أعظم قدر ممكن من صفاء التفكير ودقة التصورات ورشد الأحكام – سوى أن نمارس نقد تفكيرنا الذاتي وتسليط الأضواء على طبيعة عمل العقل والالتباسات التي يقع فيها.

ويجب أن يستمر هذا الأمر على المستوى التطبيقي مدة استمرار وجودنا.

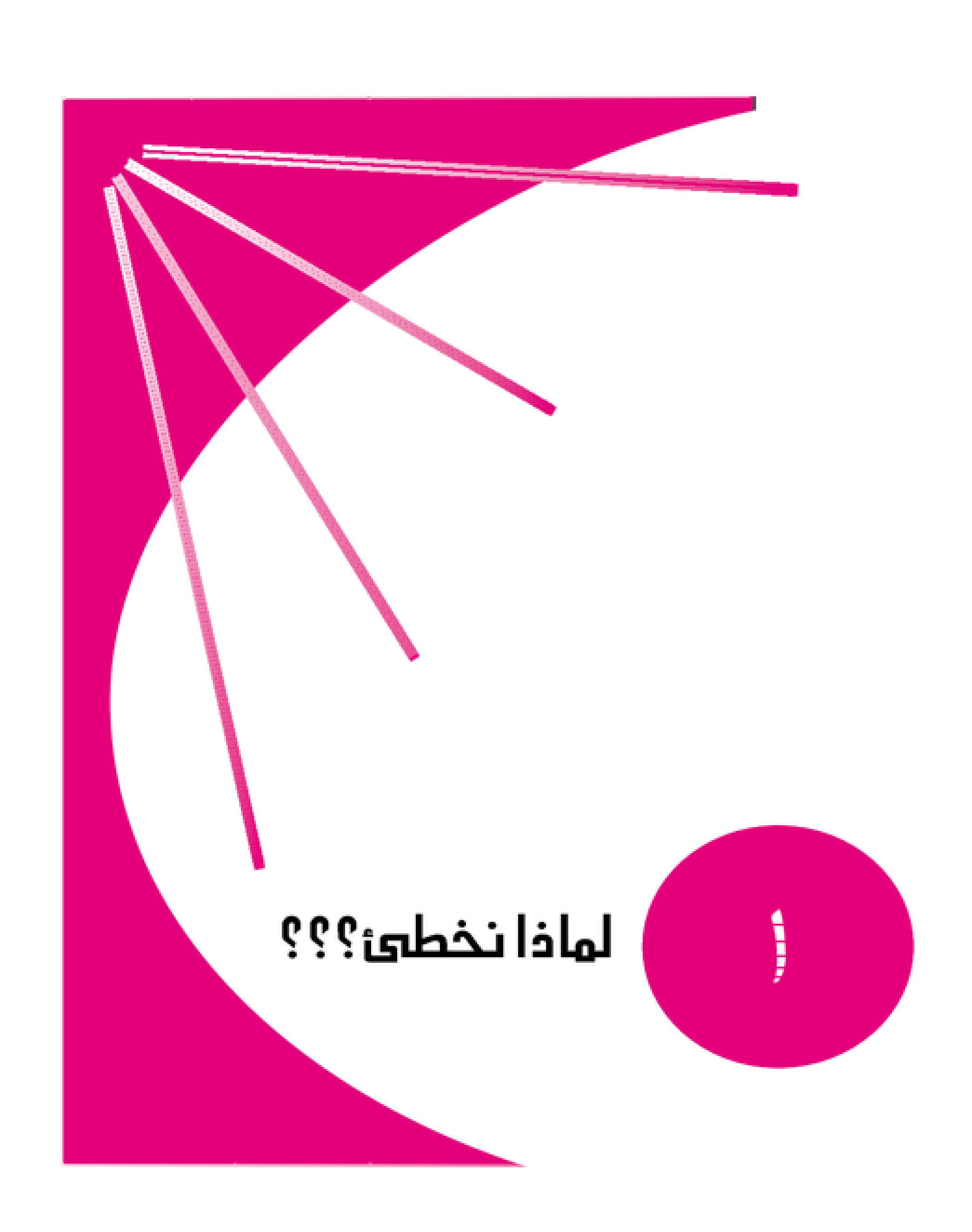
وأعتقد أن تنقية التفكير لدينا من أكبر قدر ممكن من العادات الفكرية السيئة، يجب أن تسبق تزويد عقولنا بطرق التفكير والمبادئ الثقافية الصحيحة؛ فالتخلية – كما يقولون – قبل التحلية. ولهذا فإن هذا الكتاب يعد مدخلاً لكتابي «عقلية إسلامية معاصرة» والذي سأركز فيه – بحول الله وطوله – على المعاني والمضامين وأساليب النظر والتفكير التي تكوِّن تلك العقلية.

في الختام فإنني لم أقل في هذا الكتاب كل ما ينبغي قوله، وإنما ركزت فيه على أهم الأخطاء التي نقع فيها أثناء التكفير، وأهم العيوب والنقائص التي تشوبه. وقد عمدت إلى تناول بعض القضايا المهمة تحت غير ملمح، وبأساليب عديدة حتى أعطيها ما تستحقه من العناية والبحث.

وأسأل الله – جل وعلا – أن يبارك هذا العمل وأن ينفع به الإخوة القراء، وأن يجلعه في ميزان حسناتي وأن يوفقني لما هو خير وأبقى؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلف





١

لماذا نخطئ؟؟؟

١ لماذا نخطئ؟

هذا سؤال يطرح نفسه بقوة على كثير من الناس، ويلتمسون له جواباً. من الواضح أننا لا نستخدم التفكير دائماً، فالأمور المحسوسة المعتادة لا نحتاج إلى استخدام الفكر في إدراكها أو أدائها؛ فإذا أردنا معرفة مساحة غرفة احتجنا إلى أداة نقيس بها. وإذا أردنا الوصول إلى مكان العمل استخدمنا الوسيلة التي نستخدمها يومياً، ولم نجد أي حاجة إلى التفكير في تحقيق ذلك؛ لكن حين تتعطل الوسيلة التي كنا نستخدمها، وندخل في مشكلة تأمين بديل عنها، فإننا حينئذ سنستخدم ما لدينا من خبرات ومعلومات وإمكانات ذهنية كي نعثر على ذلك البديل، وهذا هو التفكير.

إن التفكير هو استعمال العقل بكل تجهيزاته للانتقال من المعلوم إلى المجهول، أو استعماله في استثمار المعلوم من أجل الوصول إلى مجهول.

إن وضعيتنا في عمليات التفكير التي نقوم بها يومياً تشبه إلى حدٍ بعيد وضعية أناس أرادوا القيام برحلة من أجل الوصول إلى بلدٍ ناءٍ في صحراء مقفرة لم تطأه أقدامهم من قبل، وذلك بهدف كسب رزقهم منه.

وإن العقل البشري - بإمكاناته وبدهياته ومبادئه الأولى - يشبه إلى حد بعيد (بيئة الرحلة) المكونة من السيارة والطعام والشراب والخيام والملابس وأدوات الدفاع عن النفس وما شاكل ذلك. وإن المعلومات التي في حوزتنا تجاه القضية التي نفكر فيها تشبه الخرائط التي بحوزة أعضاء الرحلة، والتي يهتدون بها في

سبيل الوصول إلى تلك البلدة. والحل الذي نسعى إليه من وراء التفكير هو الوصول إلى البلدة في رحلتنا الموهومة. وما نفعله بذلك الحل يشبه الحصول على المال والرزق بعد الوصول إلى بلد الأحلام.

إذا وصلنا إلى حل للمشكلات التي نفكر فيها فإن حالنا تكون مثل حال فريق الرحلة حين يبلغ منتهى سفره؛ لكن إذا لم نصل فإننا نكون أيضاً مثل ذلك الفريق في حالة هلاكه في الطريق أو رجوعه إلى بلده دون بلوغ مراده.

إذا تساءلنا عن أسباب إخفاقنا في الوصول إلى حل، وإخفاق أعضاء الرحلة أيضاً في الوصول إلى البلد المستهدف، وجدنا خطأ ما وقع معنا ومعهم، ومنعنا ومنعهم من تحقيق ما استهدفناه.

فماذا يمكن أن يكون ذلك الخطأ؟

١- هناك احتمال في أن تكون أدوات الرحلة غير كافية للوصول إلى ذلك البلد؛ فحين يكون الطعام غير كاف أو تكون حالة السيارة لا تساعد على قطع مسافات شاسعة، فإن الوصول يكون صعباً أو مستحيلاً، وهكذا فحين يكون هناك وهن أو خلل في إمكاناتنا الذهنية من خيال وذاكرة وقدرات على التحليل والتركيب، فإن الوصول إلى حل جيد سيكون غير ممكن. وكما أن الخلل قد لا يكون في أدوات الرحلة وإنما في عدم ملاءمتها لمسافة الرحلة، فكذلك قد يملك الواحد منا إمكانات ذهنية ممتازة ولكنها مع ذلك لا تتناسب مع المشكلة التي نريد حلها، نظراً لضخامة تلك المشكلة وحاجتها إلى فريق كبير من أصحاب العقول ذات القدرة الاستثنائية، وليس إلى شخص ألمعي واحد، مثل لو أردنا إيجاد حل لمشكلة التخلف الذي يعاني منه العالم الإسلامي اليوم.

٢- قد يعود إخفاق الفريق في الوصول إلى البلد المستهدف، عائداً إلى أن

الخرائط التي في حوزته قديمة جداً أو غير دقيقة، فلم توفر لهم الإرشاد الكافي للوصول. وهكذا فإذا كنا نفكر مثلاً في إيجاد حلول للبطالة في بلد من البلدان، ولم نجد معلومات حديثة ودقيقة حول مشكلة البطالة، فإن عقولنا مهما كانت ممتازة وإرادتنا مهما كانت صلبة فإننا لن نصل إلى الحل النظري الذي نطمح إليه.

٣- قد يمارس بعض أعضاء الفريق ضغوطاً على قائد الفريق ليسير في طريقه على خلاف قناعاته، أو على خلاف ما تقوله الخرائط التي لديه، مما يؤدي إلى ضياع الفريق وعدم وصوله إلى ما يريد. وهذه الضغوط ضغوط داخلية. وهكذا ونحن نفكر في أمورنا قد نخضع لضغوط داخلية تحرفنا عن الوصول إلى الرأي أو الرؤية أو الموقف المطلوب. وتلك الضغوط تتمثل غالباً في أهوائنا وميولنا ورغباتنا، حيث إن العواطف تؤثر بقوة في عمل العقل. والناس على نحو عام هم مخلوقات عاطفية في المقام الأول. وخضوع العقل للرغبات أمر مشهود، ولا سيما عند ضعف الوازع الأخلاقي وتحلل الشخصية.

٤- قد يعترض فريق الرحلة عقبات خارجية، تحرفهم عن طريقهم، أو تجبرهم على العودة، فتحول بالتالي دون وصولهم إلى مبتغاهم، كما لو اعترض سبيلهم سباع أو عواصف أو سيول.. فيصلون إلى قناعة بضرورة العودة من حيث أتوا. وهكذا حالنا ونحن نفكر، فقد تمارس علينا ضغوط خارجية من جهات متنفذة أو من جهات تتحكم في أسباب معاشنا أو رفاهيتنا، أو نتعرض لضغوط اجتماعية مبناها على الأعراف والتقاليد الخاطئة، فنضطر إلى أن نصل إلى حلول ونتائج وآراء نصف صحيحة، تراعى فيها اعتبارات جهات الضغط. وقد حصل مثل هذا في كل مراحل تاريخنا، كما يحصل في واقعنا يومياً ومع آلاف الأشخاص.

الخرائط التي في حوزته قديمة جداً أو غير دقيقة، فلم توفر لهم الإرشاد الكافي للوصول. وهكذا فإذا كنا نفكر مثلاً في إيجاد حلول للبطالة في بلد من البلدان، ولم نجد معلومات حديثة ودقيقة حول مشكلة البطالة، فإن عقولنا مهما كانت ممتازة وإرادتنا مهما كانت صلبة فإننا لن نصل إلى الحل النظري الذي نطمح إليه.

٣- قد يمارس بعض أعضاء الفريق ضغوطاً على قائد الفريق ليسير في طريقه على خلاف قناعاته، أو على خلاف ما تقوله الخرائط التي لديه، مما يؤدي إلى ضياع الفريق وعدم وصوله إلى ما يريد. وهذه الضغوط ضغوط داخلية. وهكذا ونحن نفكر في أمورنا قد نخضع لضغوط داخلية تحرفنا عن الوصول إلى الرأي أو الرؤية أو الموقف المطلوب. وتلك الضغوط تتمثل غالباً في أهوائنا وميولنا ورغباتنا، حيث إن العواطف تؤثر بقوة في عمل العقل. والناس على نحو عام هم مخلوقات عاطفية في المقام الأول. وخضوع العقل للرغبات أمر مشهود، ولا سيما عند ضعف الوازع الأخلاقي وتحلل الشخصية.

٤- قد يعترض فريق الرحلة عقبات خارجية، تحرفهم عن طريقهم، أو تجبرهم على العودة، فتحول بالتالي دون وصولهم إلى مبتغاهم، كما لو اعترض سبيلهم سباع أو عواصف أو سيول.. فيصلون إلى قناعة بضرورة العودة من حيث أتوا. وهكذا حالنا ونحن نفكر، فقد تمارس علينا ضغوط خارجية من جهات متنفذة أو من جهات تتحكم في أسباب معاشنا أو رفاهيتنا، أو نتعرض لضغوط اجتماعية مبناها على الأعراف والتقاليد الخاطئة، فنضطر إلى أن نصل إلى حلول ونتائج وآراء نصف صحيحة، تراعى فيها اعتبارات جهات الضغط. وقد حصل مثل هذا في كل مراحل تاريخنا، كما يحصل في واقعنا يومياً ومع آلاف الأشخاص.

٥- إذا كان أعضاء الفريق يريدون الوصول إلى مدينة، وليس إلى قرية صغيرة، فإن العارفين بطرق تلك المدينة سيكونون أكثر، ولذا فإن لهم أن يتوقعوا الإرشاد والمساعدة من بعض الناس. أما إذا لم يكونوا يريدون الوصول إلى بلدة معينة فحسب وإنما يريدون الاهتداء إلى كنز عظيم مدفون في أحد بيوتات تلك البلدة، فإنه ليس لهم أن يتوقعوا أي مساعدة من أي أحد. وهكذا فإذا كنا نفكر من أجل الوصول إلى حل يتعلق بمشكلة عامة أو قضية كلية ما، مثل انتشار التدخين أو تخريب المرافق العامة فإن لنا أن نأمل في تلقي المشورة والمساعدة من جهات عديدة. لكن إذا كنا نفكر في قضية دقيقة وجزئية وخاصة، فإن الذين يمكنهم أن يساعدونا سيكونون غير موجودين أو قليلين جداً، وذلك كما لو أن شخصاً يفكر في أسلوب لتغيير نظرة زوجته إليه أو في تخفيف المشاحنات بين أبنائه..

وعلينا أن نقول بعد ذلك كله إننا كثيراً ما نخطئ في تفكيرنا بسبب بنيوي يتمثل في الفجوة الفاصلة بين محدودية الإدراك وطلاقة الإرادة والطموح والتطلع، حيث إن تجهيزاتنا الفكرية وخبراتنا ومعلوماتنا كثيراً ما تكون غير كافية لتلبية طموحاتنا. إننا لا ندرك إلا القليل من الأحداث التاريخية والفرص السانحة والعقبات المعترضة، ومع هذا فنحن نتطلع إلى الحصول على أشياء كثيرة غير محدودة. وهذا لا يشكل عقبة وهكذا فالعوامل التي تؤدي إلى وقوعنا في الأخطاء أثناء التفكير عديدة ومتشعبة. وقد عقدنا هذا الكتاب لتسليط الضوء عليها، وعلى العديد من المظاهر الخاطئة في تفكيرنا ومن الله - تعالى - الحول والطول.



٢ قصور العقل البشري

٢ قصور العقل البشري

كان من أشد ما يهلك بني البشر على مدار التاريخ احتقارهم لأشياء كبيرة، وتعظيمهم لأمور صغيرة. وقد كان العقل البشري من جملة الأشياء التي أخطأت الحضارة الحديثة في تعاملها معها؛ حيث إن الغرب - بعد أن نفض يديه من إصلاح (النصرانية) ومن إمكانية جعلها مصدراً يعتد به لتغطية عالم الغيب - عمد إلى (العقل) يستنجد به في توفير مظلة روحية ومادية لكل شؤون البشر واحتياجاتهم.

واليوم ينسج على منوال الغرب في هذا العلمانيون الجدد الذي يشنون حملات منظمة ضد التدين والمتدينين، ويحاولون تفتيت مرجعية الوحي واختزالها بطرق عديدة.

وأود هنا أن أوضح في مسألة قصور العقل البشري النقاط التالية:

أ- العقل البشري عقل محدود وهو - كما قلنا - يوفر بيئة لنمو الدلالات والمفاهيم، كما أنه قادر على استخدام ما تنقله إليه الحواس في محاولة الوصول إلى بعض الأشياء المجهولة لكن العقل غير قادر على الخوض في مسائل لا تتوفر له عنها معلومات جيدة، فهو لا يستطيع تحديد الغاية من الخلق، أي: لماذا نحن هنا؟

كما لا يستطيع سن تشريعات تأخذ بعين الاعتبار مصالح جميع الناس وأوضاعهم، دون أن يقع حيف على بعض منهم. أضف إلى هذا أنه لا يستطيع

أن يخبرنا عن الأمور المهمة في حياتنا والأمور التافهة حيث ليس فيه أبواب ندخل منها إلى مجالات كل منها.

والعقل البشري بنية يسهل خداعها، فحين نزوده بمعلومات خاطئة فإنه يقع في الخطأ بسهولة. إنه عقل قادر على البحث في الأدوات والأشكال والأساليب وكل الأمور المحدودة، لكنه غير قادر على البحث في مصيره الذاتي. وهو على مقدار ما يبدي من البراعة في التعامل مع الكم، يبدي من العجز في التعامل مع الكيف أو ما يسمى (الصفات). وتجاهل كل هذه المحددات لقدرة العقل على العمل يؤدي إلى حدوث أخطاء فاحشة تتعلق بمصير الإنسان على هذه الأرض.

ب- العقل البشري ليس بنية مكتملة متميزة منحازة معزولة عن السياقات المعرفية أو عن المشكلات والقضايا التي يعالجها أو يشتغل عليها. وإنما هو إمكانات ومفاهيم وبدهيات ملتبسة بالمعطيات المعرفية ومتفاعلة معها، كما أنها ملتبسة بالمشكلات الوجودية المختلفة ومتفاعلة معها أيضاً. وهذا يعني أننا ونحن نعلِّم نتعلم، كما أن عقولنا تتأثر بالمعلومات التي تعالجها والمشكلات التي تسعى إلى حلها. وهذا كثيراً ما يؤدي إلى اضطراب العقل وتراجعه عن كثير من آرائه ومعتقداته. ولذا فإنه ليس هناك أي ضمان لاطراد تقدم أي مفكر في خط واحد مهما كان ألمعياً ومتمكناً من الأفكار والمفاهيم التي يدعو إليها.

والأمثلة على هذا أكثر من أن تُحصى. وهذا (هوسرل) - بعد أن كتب ألوف الصفحات في استجلاء علم (الظاهريات) محاولاً الوصول إلى (البنى الموضوعية) للماهيات المحضة - نراه يتحول من رجل يبشر بمنهج جديد إلى واعظ يحذر أوروبا من المخاطر التي تنتظرها إذا هي استمرت في منهجيتها العلمية والفكرية، بل إنه يهاجم (العقل) ويتساءل في محاضرة له عام ١٩٣٥:

هل استقال العقل وفقد دوره في الحياة؟ أم إنه خلافاً لذلك كشف عن وجهه الحقيقي الانتهازي الماكر والنفعي؟

هذا كله يعني أن تفويض كل شؤون الحياة للعقل وسدنته، يشتمل على مخاطرة كبرى؛ وليس هناك أي حل سوى العودة بالعقل إلى وظيفته الأصلية في الحركة ضمن أطر ومسلمات كبرى يؤمّنها الوحي بما يصوغه من رؤى كبرى، وبما يرسمه من خطوط عريضة لحركة الإنسان وعلاقاته.

جـ- العقل البشري أبدع حلولاً كثيرة لمشكلات الناس، وساهم في توفير الراحة لهم وتخليصهم من كثير من ألوان العناء، وهذا موضع تقدير منا جميعاً؛ ولكن علينا أن نقول: إن إبداعات العقل أوجدت مشكلات كثيرة مثل تلوث البيئة ومخاطر الطاقة النووية وسيطرة الآلة على حياة الإنسان... وعقولنا غير قادرة على إبداع الحلول للمشكلات التي أوجدتها، إنها تكشف دائماً عن مساحات فاصلة بين وجود المشكلات والقدرة على حلها؛ وما ذلك إلا لأن منتجات العقول تدخل في تعقيدات وملابسات يعجز العقل عن فك رموزها والتحكم بها؛ وماذا يمكن للعقل أن يفعل لإنسان سيطرت عليه غرائزه وشهواته حتى أعمته عن رؤية الحق والحقيقة؟!

وهذا يعني أن الاعتماد على العقل في تصحيح مسار البشرية بعيداً عن القيم والمبادئ التي يوفرها التدين الصحيح، مجافٍ للصواب وباعث على خيبة الأمل والخذلان.

د- أكثر الناس استخداماً لعقولهم واستثماراً لها هم الفلاسفة، حيث إن صياغة المفاهيم بواسطة العقل هي شغلهم الشاغل؛ ومع ذلك فإن كل المشتغلين بالفلسفة يقرون أنه ليس من شأنها أن تمنحنا اليقين، أو تحدد لنا موطن الداء أو شكل الدواء، أو تقدم لنا مفاتيح حلول لمشكلاتنا، إنها نشاط فكري لا يتوقف

عن إثارة الأسئلة وإعادة صوغ المشكلات، إنها أشبه بمسلسل ليس له نهاية، وهي دائماً في حركة مستمرة من إشكال إلى إشكال أكثر تعقيداً منه. ولست أريد هنا أن أُزري على الفلسفة أو أنفي عنها ميزاتها، وإنما أريد أن أقول: إن الناس بحاجة إلى اليقين، وإلى أطر مهما تكن واسعة إلا أنها في النهاية موجودة وواضحة. وتلك الأطر تضع حداً لكثير من الأسئلة التي يطرحها العقل، كما ترشد إلى المسار الذي يمكن أن يسلكه في الإجابة على الأسئلة المطروحة. وهذه الأطر لن يجدها الناس إلا في الدين الذي جعله الله مستوعباً لكل الخير الذي جاءت به الأديان السابقة.

هـ- العقل البشري عاجز عن التنبؤ الدقيق بما يمكن أن يقع في المستقبل؛ وقد حاول بعض مفكري أوروبا أن يستعينوا على معرفة ما يمكن أن يقع في المستقبل ببلورة رؤية شاملة للكون: بنيته وعناصره ونواميسه على قاعدة: إذا أردت أن تعرف ما سيحدث في المستقبل فانظر إلى ما حدث في الماضي. والحقيقة أنه لا يعرف الغيب إلا الله - تعالى - وأن عقولنا يمكن أن تتوقع حدوث أمور صغيرة في المستقبل القريب. أما توقع الأحداث الكبيرة في أزمنة متباعدة فهذا ما لا تستطيعه عقول البشر. وما ذلك إلا لأننا عاجزون عن معرفة كل التغييرات التي ستقع في المستقبل، والتي ستؤثر بالتالي في نوعية الأحداث التي يمكن أن تقع.

أما قراءة التاريخ لاستخراج النواميس والسنن الكونية منه، فإن عقولنا تكشف عن قصور مدهش في هذا الجانب؛ والسبب في ذلك أن معرفتنا بالأسباب الحقيقية التي أدت إلى ولادة أحداث التاريخ الكبرى تظل دائماً معرفة ناقصة. وحين نحاول حصر أسباب الأحداث الكبرى، ونوفَّق في ذلك، فإن المشكلة التي تواجهنا تكمن في تحديد وزن كل سبب وحجم تأثيره في وقوع

تلك الحوادث.

لكن حين نتأمل سنن الله - تعالى - في الخلق كما وردت في نصوص الكتاب والسنة فإن دائرة خطئنا تضيق ودرجة اليقين لدينا تكون أكبر.

و- لا يملك العقل البشري أي عتاد حقيقي يمنعه من التورط في صناعة الخرافات وقبولها. ولست أبالغ إذا قلت: إن البنية العميقة لعقول معظم الناس هي بنية خرافية حتى كأن الخرافة هي الأصل لديهم، إذ بمجرد حدوث ضعف في التثقيف أو وقوع الناس في حالات استثنائية من الشدة والكرب تطفو تلك البنية على السطح!

لو تساءلنا من أين تأتي قابلية عقولنا للسقوط في مستنقع الخرافة لوجدنا أننا تجاه حالة لا تخلو من الغموض لكن يبدو لي أن مصدر ذلك يعود إلى أمرين جوهريين:

الأول: هو جهلنا بمعظم ما يقع في الوجود من أحداث، فإذا قلنا: إنه يقع على الكرة الأرضية في الدقيقة مئة مليون حدث، فإننا قد لا نشاهد منها أكثر من عشرة أو عشرين، والباقي يقع بعيداً عن أنظارنا. أضف إلى هذا أن خبرتنا بما حدث في الماضي أيضاً محدودة جداً.

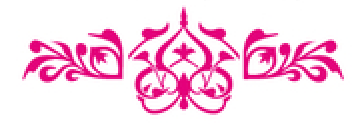
ولدى الناس إحساس بأن هناك عوالم لا تغطيها حواسنا، وبالتالي فإن دخولها إلى مداركنا يكون متفاوتاً، ونحن المسلمين - مثلاً - نعتقد بوجود (عالم الجن) و (عالم الملائكة) فإذا ما حُدِّثنا عن حصول بعض الأمور الخارقة أو غير المألوفة، فإن العقل البشري كثيراً ما يتقبلها على أنها تنتمي إلى عالم من العوالم التي لا يراها الناس، أو تتصل بالأحداث التي لم يشاهدوها، وتكون تلك الأمور من صنع الخيال أو من الكذب المحض.

الثاني: هو أن عقولنا تتقبل الأخبار التي نسمعها ما دامت تقع في دائرة

المعقول، وترفضها إذا خرجت عن تلك الدائرة فإذا ما قيل لنا: إن الناس في البلد الفلاني رأوا شخصاً يحمل عشرة قناطير على ظهره، فإننا نرفض ذلك، ونعده من قبيل الخرافة لأنه يقع خارج دائرة المعقول لنا؛ لكن المشكلة هنا أن الذي يرسم دوائر المعقول وغير المعقول - في غالب الأمر - ليس العقل وإنما الثقافة والخبرة؛ فإذا قال لك شخص: أعطني ألف دينار لأتاجر لك به وسيربح مئة ألف في آخر السنة، فإن القناعة بذلك وعدم القناعة به لا تعود إلى العقل وإنما إلى الثقافة والخبرة والمعرفة بأحوال التجارة في تلك السنة، فصاحب الخبرة ربما يقول لك: لا تصدق ذلك، فأمهر التجار لا يستطيع الآن مضاعفة رأس ماله خمس مرات في العام فضلاً عن أن يضاعفه مئة مرة. لكن يأتي شخص آخر عديم الخبرة، أو له خبرة مختلفة بأحوال السوق، فيقول: كلام ذلك الرجل معقول، وقد حدث مثل ذلك في العام الفلاني مع الشركة الفلانية، ولا مانع أن يحدث الآن.

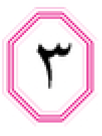
وهكذا فمضاعفة رأس المال مئة مرة في العام تعد من قبيل المعقول في خبرة شخص معين، وتعد من قبيل الخرافة والاحتيال في خبرة شخص آخر. ولهذا فطالما انقسمنا تجاه بعض الأخبار والأحداث إلى فريقين: فريق يقول: هذا معقول، وآخر يقول: هذا غير معقول.

وهكذا فقد ظُلم العقل مرتين: مرة من قبل المشعوذين والمنحرفين الذين ألغوا دور العقل، ومرة من قبل الذين حرموا من نعمة الهداية بأنوار الوحي فألّهوا العقل، وطلبوا منه أموراً لا يقوى عليها.





٣ العجز عن التفصيل



العجز عن التفصيل

علينا أن نعترف أننا لم نقم بما يكفي من الدراسات، لبيان أثر البيئة الأمية في بنية التفكير، والتعامل مع الأشياء، واستخدام اللغة بوصفها وسيطاً دلالياً. وإذا دققنا النظر في واقع العالم الإسلامي في أيامنا هذه وجدنا أن نسبة الأميين فيه تزيد على ٤٠٪، وإذا رجعنا قرناً إلى الوراء فإن نسبة الأمية تزيد على ٨٠ أو ٩٠٪ وهذا يعني أن الموروث الفكري للأجيال الخمسة الماضية – على الأقل – موروث مطبوع بطابع الأمية، والاعتماد على الذاكرة في استخدام اللغة، بعيداً عن المعونات التي تقدمها معرفة الكتابة ومعاناة القراءة في هذا الشأن.

وسوف نلمس خلال هذا الكتاب العديد من الآثار الفكرية السيئة لهذه الوضعية، وسنشير إليها في المكان المناسب. وإن من جملة المشكلات التي تنشأ من تفكير الأميين وأشباه الأميين[1]: العجز عن التفصيل والتقسيم، واللجوء إلى التفكير عبر الكليات، مما ساهم في إيجاد بنية عقلية غير دقيقة، كما ساهم في إيجاد قطيعة معرفية بين التيارات الثقافية والإصلاحية والدعوية الموجودة في الساحة الواحدة.

أساس هذه الوضعية هو أن الإنسان اقتصادي يسعى دائماً إلى تقليل ما يبذله ما وجد إلى ذلك سبيلاً. ونحن حتى نوفر الجهد العقلي نحاول دائماً

(١) أشباه الأميين هم الذين يعرفون القراءة والكتابة، ولكن نادراً ما يقرؤون ويتابعون الحركة الثقافية

أن نتخلص من التفاصيل؛ وذلك لأن الناس في البيئات الأمية وشبه الأمية يستخدمون الذاكرة والطلاقة الشفوية في التواصل والتعاون مع المشكلات أكثر من استخدامهم الكتابة والتسجيل على الورق. ولو أرادوا الاحتفاظ بالتفاصيل الكثيرة في ذاكرتهم لكانوا في ذلك يغامرون مغامرات غير محسوبة، ويعرضون عمليات التفكير لخلل مؤكّد. وإذا كان لا بد من اختزال بعض التفاصيل فالأسهل اختزال طرفي المقياس والتخلص مما بينهما، وهذا ملحوظ في إعلام كثير من الجماعات والأحزاب حيث التعبيرات المفضلة هي: ممتاز جداً، وسيئ جداً، وقوي جداً، وضعيف جداً، وقريب جداً، وبعيد جداً.. أما نصف الممتاز والجيد والمتوسط والضعيف والمقبول إلخ.. فإنه يُنظر إليها على أنها تعبيرات رخوة لا تعبر عن الحقيقة، وهي أيضاً تفاصيل لا حاجة إليها. وهذه الحالة هي ما نعبر عنه بعمى الألوان، حيث لا يرى المصاب بهذه العلة سوى الأبيض والأسود، إنه يبصر قطبي التنافي فقط.

هذا العجز عن التفصيل ليس ناشئاً من عجز في العقل، ولكن من خلل في الثقافة، وخلل في التربية الفكرية؛ فالشاب الذي نشأ في جماعة ليس لها من همّ سوى مديح الذات ونقد الآخرين لماذا يهتم بالتفاصيل وأين يجدها؟

إن الإعراض عن استخدام التفاصيل المطلوبة للتصور الدقيق قد حجَّم مساحات الحوار والتواصل بين المختلفين، وأشاع فينا - من حيث لا ندري - روح التحزب والشحناء والبغضاء. وعلى سبيل المثال فإن المجموعة التي ترى أنها مستقيمة جداً في سلوكها، ومصيبة جداً في اجتهادها ومذهبيتها، مضطرة إلى أن تنظر إلى من يخالفها أنه منحرف جداً ومخطئ جداً، لأن ذلك هو الذي يجعل رؤيتها لنفسها أشد وضوحاً وأعظم تبلوراً.

أما المجموعة التي تعتقد أنها مستقيمة ومصيبة أو عليها بعض الملاحظات في السلوك، وعندها بعض الأخطاء في الاجتهاد، فإنها تكون قادرة على رؤية الاستقامة في السلوك والصواب في الاجتهاد لدى من يخالفها في منهجيتها، وبذلك تتوفر أرضية لقبول النقد ومراجعة الذات وفهم الآخر والتعاون معه وإنصافه وإعذاره. فهل لنا أن نتأمل بصدق وتجرد عدد المرات التي نقع فيها في هذا الخطأ؟

المنهجية الإسلامية واضحة في اعتماد التفصيل، والتفصيل في عبارات المحدثين في تقويم الرجال واضح أيضاً؛ ولكن السؤال الملحّ يظل يحوم حول إمكانية صبغ البنى الفكرية لدينا بتلك المنهجية.





٤

وهم الحياد الكامل



وهم الحياد الكامل

كثيراً ما يكمن الخطأ في إنكار إمكانية وقوع الخطأ. وعقولنا معاشر البشر لا تتعامل مع الأشياء من فراغ، ولا تستطيع أن تعالج المشكلات دون ثقافة ورؤية ومفاهيم محددة، صارت على مر الأيام جزءاً أساسياً منها. الخطأ الذي نقع فيه، هو تصور وجود إمكانية للقبض على الحقائق الصافية، ورؤية الأمور رؤية واحدة متطابقة مهما اختلف الناظرون ومهما اختلفت زوايا الرؤية. وهذا في الحقيقة ممكن إلى حد بعيد في المسائل الرياضية والفيزيائية والكيميائية، أما في المسائل العقدية والأخلاقية والتاريخية والاجتماعية والإنسانية عامة، فإن ادعاء الحياد من قبل بعض الناس لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام، حيث إننا حين نرى الأشياء نراها عبر أغشية من عقائدنا وثقافاتنا وخبراتنا. وكما أننا نرى الأشياء وفق لون النظارة التي نضعها على عيوننا، فإن الأشياء تتلون أمام عقولنا بألوان ثقافاتنا.

وعلى سبيل المثال فإن المستعمرين البيض حين ذهبوا إلى أفريقية كانوا يعدون عري النساء هناك قمة التخلف والبدائية والهمجية، وكانت النساء الغربيات آنذاك يرتدين ملابس تغطي كل أجزاء أجسامهن. وبعد أن تغيرت الثقافة الغربية صار الإنسان الغربي يعد نوادي العراة ظواهر حضارية تدل على التقدم واتساع الأفق.

إن التسامح الذي تبديه بعض الدول الغربية تجاه التعددية الثقافية قائم على

أساس اعتقاد كثير من الناس أن في ثقافة كل جالية أو عرق مفاهيم وتقاليد وعادات تبدو للآخرين غير معقولة ولا مألوفة، وكما أن المرء يريد من الآخرين أن يتسامحوا تجاه خصوصيته الثقافية، فإن عليه أيضاً أن يكون متسامحاً تجاه خصوصياتهم الثقافية. وهذه النظرة صحيحة في ظل انعدام مرجعية عقدية، لا تستمد مكوناتها من خبرة البشر، وهذا ما على المسلم أن يفعله تجاه إخوانه الذين ينتمون إلى بلد غير بلده، ولهم خصوصيات ثقافية لا تخرج عن دائرة المباح، أو ما هو خلاف الأولى.

ولا أريد هنا أن أقول: إن (الانحياز) شيء لا وجود له، وأن نصاب الحق مبهم في كل أمر، فهذا لا يقول به عاقل. ونحن لا نشك في أن الجندي الذي يقتحم خطوط العدو تحت وابل من النيران يعد شجاعاً ومقداماً، سواء أكان ذلك الجندي من جنودنا أو من جنود الأعداء؛ فإذا جاء من يسمي تقدم جنود العدو في ظل المخاطر تهوراً ومجازفة، ويسمي تقدم جنودنا بطولة وشجاعة، فإنه يكون متحيزاً وخاضعاً لعواطفه الشخصية.

الذي أحب أن أقرره هنا هو أن علينا أن نعتقد أنه ليس هناك أي نظام ثقافي يمكنه أن يجعلنا حياديين على نحو كامل، كما أنه ليس هناك أي منهج علمي يحول بيننا وبين سيطرة شيء من انفعالاتنا وأهوائنا علينا في لحظة ما؛ كما أن التدين الحق لا يتم من غير أساس عقدي راسخ وبعيد عن الشكوك والظنون. وانحياز المرء إلى معتقداته ليس مما يسمى انحيازاً، حيث لا يمكن أن يحيا بنو الإنسان من غير عدد من العقائد والأمور اليقينية التي يؤسسون رؤيتهم للوجود عليها. ولا يضرهم أن يخالفهم الآخرون فيها.

هذه النظرة المتوازنة تجعلنا نحاول أن نتقي الوقوع في دائرة التحيز مهما كان ذلك ممكناً، وأن نتوقع دائماً أن يحدث ذلك منا عن قصد وعن غير قصد، كما تجعلنا نتسامح مع المخالفين في أمور هي من قبيل الخصوصيات الثقافية، أو مما يقبل الاجتهاد؛ وأن نسعى إلى التميز في أمور نعدها مما لا يقبل المساومة والتنازل وبذلك كله يتم فهم جوهر الحياة على النحو الصحيح.





٥

الخلط بين النظامين المفتوح و المغلق

٥ الخلط بين النظامين المفتوح و المغلق

يميل العقل البشري إلى الاعتقاد بالصواب المطلق. ويبدو أن ذلك يتم جرياً خلف قانون السهولة، إذ إنَّ إدراك المطلق أسهل من إدراك النسبي.

حين نمارس تربية ولد أو تعليم طالب، أو نؤسس مشروعاً زراعياً.. فإننا نقوم بكل ذلك داخل بيئة محددة، منها ما هو ملموس، ومنها ما هو غير ملموس، ومن الحكمة آنذاك أن نأخذ تأثير تلك البيئة في أعمالنا عند الحدس بالنتائج.

أي جهد يبذل في أي مجال من مجالات الحياة يخضع لواحد من نظامين: نظام نسميه النظام المفتوح، ونظام نسميه النظام المغلق.

يكون النظام مغلقاً حين ينعدم تأثره بالعوامل الخارجة عنه. وبذلك يكون ارتباط العمليات المختلفة داخل النظام قوياً قوة مطلقة، كما يكون الارتباط بين المقدمات يقينياً لا يتطرق إليه أي شك أو احتمال. وأوضح مثال على النظم المغلقة نظم الرياضيات والنظم الكيميائية، فكل ثلاثة دنانير تضاف إليها ثلاثة دنانير تصبح ستة، وكل ستة يضاف إليها ستة تصبح اثني عشر وهكذا.. وقل مثل هذا في الكيمياء، فإن مقداراً معيناً من عناصر كيميائية محددة يتفاعل تفاعلاً واحداً ويعطي نتائج موحدة كلما فعلنا ذلك على مقتضى شروط التفاعل الأول.

وبناءً على هذا النظام تقوم الصناعات الكيميائية في كل أنحاء العالم.

أما النظام المفتوح فالوضع معه مختلف حيث يتم السماح لنظم أخرى باختراق النظام الذي نتبعه في عمل ما، والتشويش عليه، وجعل نتائج العمل في ظله مظنونة. وأظهر مثال على ذلك ما يتم في الأعمال التربوية والتجارية، فنحن إذ نربي نتبع نظاماً معيناً في تعاملنا مع أبنائنا، ولا يخالجنا أي شك في جودة ذلك النظام، ولذا فإننا نتوقع نتائج جيدة لممارساتنا التربوية؛ لكن بما أننا نربي على أساس نظام مفتوح فإن نتائج تربيتنا لا تكون دائماً كما نتوقع، حيث يكون للمدرسة والشارع والإعلام والأقرباء والزملاء.. تأثيراتٌ ما في أبنائنا، وتلك التأثيرات كثيراً ما تتقاطع مع تأثيرنا فيهم، ولذا فإن كثيراً من المربين يشعرون بالمرارة وخيبة الأمل، ويتهمون أنفسهم وأساليبهم التربوية مع أن الخلل في شخصيات أبنائهم قد يكون من تأثيرات النظام الأخلاقي أو الاجتماعي أو السياسي.. السائد في البلد.

وقل نحواً من هذا في ممارسة الأعمال التجارية، إذ مهما كانت دراسة الجدوى لمشروع صناعي أو تجاري محكمة ودقيقة، ومهما كانت الظروف التي أقيم فيها المشروع مثالية ومواتية، فإن النتائج والنجاحات التي نتوقعها لذلك المشروع تظل احتمالية وغير مؤكدة، ويظل هناك شيء من المخاطرة.

حين لا يدرك الناس طبيعة النظام الذي يعملون في ظله يقعون في اضطراب شديد، فالجهل بأن العمل التجاري - مثلاً - يجري في ظل نظام مفتوح، جعل بعض الذين أسسوا شركات مساهمة يمنون المساهمين بأرباح كبيرة مع نفي أي احتمال للخسارة؛ وبعد مدة كانت الأرباح أقل من الوعود، أو كانت الخسائر هي الشيء الذي أمكن تحقيقه، فحدثت نزاعات وخصومات وشرور كثيرة.

وعدم إدراك بعض الناس أن العمل التجاري يتم وفق نظام مفتوح، جعلهم يفتحون مطاعم بمواصفات المطاعم التي كانت سائدة قبل ربع قرن، فلم يدخلها أحد، لأنها بدت متخلفة عن أذواق الناس، وعن نظائرها الموجودة في السوق. وقل نحواً من هذا في أولئك الذين يجهلون أنهم يربون في ظل نظام مفتوح فاستخدموا أساليب تربوية بالية؛ مما جعل تأثير الشارع في أبنائهم أقوى من تأثيرهم فلم يحصلوا إلا على قليل مما يريدون.

لو قارنا الأساليب الدعوية التي تتم في بلد مثل أندونيسيا بالأساليب التي يستخدمها المبشرون، لأدركنا أن المبشرين هناك يدركون أنهم يعملون في عالم جديد، ولذا فإنهم يستخدمون أحدث ما توصل إليه العلم في الاتصال بالناس والتأثير فيهم، ولوجدنا – مع الأسف – أن معظم الدعاة هناك ما زال يظن أنه المؤثر الوحيد في الساحة، وأنه لا منافس له، فلم يطوروا أساليبهم، ولم يرقّوا لغة خطابهم، ولا حدثوا وسائلهم وهكذا..





٦

اللجوء إلى الحل الوسط

٦ اللجوء إلى الحل الوسط

عند العجز عن اتخاذ قرار، وعند التباس الأمور، وفي حالات الخوف يجد الناس أنفسهم مدفوعين إلى الابتعاد عن الآراء والحلول المتطرفة، ويأنسون بالحلول والآراء المتوسطة، وليس هذا شأن الناس العاديين، بل هو ما يصير إليه في كثير من الأحيان أكثر الناس حرصاً على الوصول إلى الحقيقة، وهم القضاة، حيث يلجؤون إلى الصلح والذي يقوم أساساً على مبدأ الحل الوسط. وهم يفعلون ذلك غالباً عند غموض المواقف وانعدام الأدلة.

العولمة تنشر في الناس القناعة باللجوء إلى الحلول المتوسطة من خلال إشاعتها خلق الصفقة وأدبيات المساومة، وذلك بوصفها من أساسيات نظام التجارة الذي يتوسع استخدامه يوماً بعد يوم.

ولست أريد هنا أن أقول: إن الحلول المتوسطة هي حلول خاطئة دائماً على المستوى النظري وعلى المستوى الأخلاقي، فذلك لا يصح، فالله - جل وعلا - مدح في كتابه الصلح حين قال: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨]، وهو كما ذكرت يقوم على موقف وسط بين موقفي المتنازعين، ولكني أريد هنا أن أوضح أن هناك انطباعاً سائداً لدى كثير من الناس بأن الحلول المتوسطة هي دائماً حلول جيدة وعادلة، وهذا ليس بصحيح ولا مقبول. وسأعرض هذه القضية من خلال النقاط الآتية:

١- ليست الحلول المتوسطة دائماً صحيحة، فقد يتم عرض ثلاثة آراء،

وتكون الثلاثة خاطئة: الوسط والطرفان، لأن هناك رأياً رابعاً هو الصحيح، ولكن لم يتم الاهتداء إليه، أو لم يتم عرضه، كما لو أن شخصاً قال: إن ٤+٤=١٤ فقال آخر: إن ٤+٤=١٠، فقال ثالث: إن ٤+٤=٦. والحق طبعاً مع غير هذه الآراء.

٢- قد يكون الحق الصريح في أحد الطرفين، وحينئذ فإن اللجوء إلى الحل المتوسط قد ينطوي على نوع من الخطأ السلوكي، أو التنازل عن أمر لا يصح التنازل عنه، وذلك على نحو ما يفعله اليهود في فلسطين حين دخلوا بيوتاً غير بيوتهم، وطردوا أهلها منها، والآن جاء الوسطاء وفي جعبتهم مجموعة من الحلول الوسط حيث يطلب من صاحب البيت أن يوقع على التنازل عن بيته للص الغاصب، ويفوز هو بغرفة من غرفه! والأعجب من هذا أن يظهر اللص بمظهر المتسامح والمتنازل والمتفضل إذا سمح لصاحب البيت بالإقامة في غرفة من غرف بيته!!

ومن الوجهة الشرعية المحضة لا يكون ثمة لجوء إلى حل وسط بين حلال صريح وحرام صريح، أو بين واجب صريح ومحظور صريح، إلا في حالات الضرورة والإكراه المعتبرة شرعاً.

٣- يمكن في حالة اللجوء إلى الحلول المتوسطة أن نأخذ أفضل ما في الطرفين وأسوأ ما فيهما؛ فحين يكون طرفا المثلث متساويين فإن قمة المثلث تشكل أفضل الوسط، وهكذا إذا أردنا أن نأخذ أفضل ما في الطرفين، فعلينا أن نحاول الارتقاء في اتجاه قمة المثلث، كما أن الذين يتجهون نحو قاعدة المثلث يأخذون أسوأ ما في الطرفين، وكل منهما يمكن أن يسمى حلاً وسطاً.

وهكذا فهناك أشخاص كثيرون ينحازون للقديم، ويرفضون الجديد.

وهناك أناس آخرون انسلخوا عن القديم وغرقوا في الجديد. وهناك فريق ثالث أخذ أسوأ ما في القديم وأسوأ ما في الجديد. وثمة فريق رابع يحاول أن يأخذ أفضل ما في القديم وأفضل ما في الجديد. إذن من الممكن للحل المتوسط أن يمثل قمة الصواب والصلاح، كما يمكن له أن يشكل قمة الخطأ والفساد، وبهذا يتضح أن انجذاب الناس إلى الحلول المتوسطة على نحو ساذج ومتعجل كثيراً ما ينطوي على أخطاء فادحة!.





٧

الاهتمام بالصغير المباشر



الاهتمام بالصغير المباشر

التركيب العام لعقولنا وثقافتنا شديد الحساسية والتنبه للأشياء المباشرة مهما كانت صغيرة، كما أنه على العكس من ذلك مصاب بالتبلد والترهل تجاه الأمور غير المباشرة مهما كانت كبيرة. ويبدو أن هذه العلة عامة لدى الأمم والشعوب منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا، فالأخطار الكبرى المألوفة وغير الحادة لا يراها الناس. والأخطار الصغيرة المفاجئة تثير أوسع الاهتمامات إذا وصلت إليهم عن طريق مباشر. قَتْلُ محمد الدرة قد أثار كثيراً من المسلمين في أنحاء العالم، وفتّق قرائح كثير من الشعراء على نحو لم يصنعه قتل ألوف الفلسطينيين عبر سنوات طويلة ماضية.

في عالمنا الإسلامي الكبير يموت كل سنة عشرات الألوف من الأطفال نتيجة سوء التغذية وقلة الدواء، وتقع في أماكن متفرقة من العالم مجازر رهيبة يذهب ضحيتها أبرياء كثيرون، لكن ذلك لا يثير فينا مشاعر الحزن والغضب والثأر كالتي أثارها قتل محمد الدرة، وما ذاك إلا لأن الناس رأوا عبر شاشات الفضائيات صورة حية لتلك الجريمة المنكرة. أما موت عشرات الألوف من المسلمين بطرق مختلفة فإننا عرفناه وسمعنا به على شكل روايات وحكايات تتناقل فكان أثر ذلك ضعيفاً.

يبدو أن الفزع من الأخطار المباشرة شيء موروث من الحياة البدائية الأولى حيث كان الناس لا يعرفون معنى للحذر من الأخطار الكبرى وغير المباشرة.

وجل ما يحتاطون له يتمثل في حماية أنفسهم من صولة وحش كاسر أو سيل جارف أو إعصار مدمر. ولم يكن ثمة مخاطر عامة تهدد الحياة على وجه البسيطة، كما هو الشأن اليوم، ولم يكن لديهم من الخبرة وسعة المعرفة ووسائل المراقبة ما يمكنهم من رؤية تلك المخاطر إن كانت موجودة.

أما اليوم فقد اختلفت الأمور لكن عقولنا لم تختلف، فالناس اليوم لا يواجهون إلا القليل القليل من المخاطر العاجلة والمباشرة بسبب السيطرة شبه التامة للإنسان على بيئته، لكن الذي يتصاعد اليوم هو الأخطار الكبرى التي تهدد وجود الأمم على المستوى الروحي والمادي ولا أحد يلقي بالاً لذلك؛ لأن عقولنا ليست مجهزة للتعامل معها. في العالم اليوم بطالة رهيبة وانتشار مخيف لأمراض الإيدز والسرطان والحساسية، إلى جانب مخاطر استخدام الطاقة النووية والتعامل مع مخلفاتها، كما أن في العالم نضوباً متزايداً للمياه العذبة وتمدداً للتصحر. وفي العالم اليوم تراجع للتماسك الأسري ولتأثير القيم والمبادئ في توجيه السلوك، كما أن الإحساس بالأهداف الكبرى بات في أضعف حالاته لدى معظم الناس...

كل هذه الأشياء لا تثير ردود فعل تُذكر عند بني البشر، وصار موقفنا تجاهها لا يفسر إلا على أنه غفلة أو استسلام!

صارت الصدمات والكوارث هي المنبه الوحيد الصالح لإيقاظنا، فحادثة (شرنوبيل) في روسيا شكلت صدمة للعالم، وفتحت عيون الناس على المخاطر المحتملة لاستخدام الطاقة النووية أكثر بكثير مما فعلته ألوف التحذيرات من علماء البيئة وأحزاب الخضر والأطباء وغيرهم.

حين وقعت الردة بعد وفاة النبي -ﷺ- نهض المسلمون لمعالجتها، وصار

القضاء على فتنة الردة الشغل الشاغل للمسلمين، وقد تمكنوا من الخلاص من مخاطرها المحدقة في وقت قياسي، لأنها شكلت صدمة للوعي الإسلامي المبتهج بانتصارات الإسلام السريعة؛ لكن تراجع التدين والالتزام الذي كان يحدث لدى معظم المسلمين كلما ابتعدوا عن فترة صدر الإسلام، لم يثر إلا القليل من الاحتجاج والقليل من الانزعاج. وهكذا فقد فقدت الأمة مركزها الريادي في العالم عبر قرون من التراجعات البطيئة وغير المحسوسة دون أن يُصدم الوعي الإسلامي الصدمة التي تحرر طاقات المسلمين، على نحو ما حدث أيام الردة.

لعل هذا كله يحفز شبابنا على أن يبدعوا في إيجاد مقاييس ومجسّات نتحسس من خلالها التغيرات البطيئة والتحولات غير المباشرة التي تهدد كيان الأمة دون أن تشعر بها.

ولن نستطيع القيام بشيء ذي قيمة في هذا الشأن ما لم نوسّع المساحات التي يغطيها وعينا وشعورنا، فنبصر الأخطار والانحرافات على امتداد حقب زمنية متطاولة.





٨
الفكر
يشوه الواقع



الفكر يشوه الواقع

طالما أبدى العقل البشري ألواناً من العجز عن إدراك الواقع الذي دائماً نتباهى بفهمه والتصرف به والسيطرة عليه. ومنبع عدم إدراكنا على نحو صحيح للواقع، يتمثل أساساً في جهلنا بطبيعة الواقع وصعوبة التعامل معه، فنحن نظن دائماً أن معرفتنا بالواقع تامة، ونستغرب كلام من يقول: إن إدراكنا للواقع على نحو تام صعب أو مستحيل.

ولذا فإننا في فهمنا للواقع نستخدم ما تزودنا به الحواس، أو ما تلقيه أمام أعيننا البديهة، دون أن نكلف أنفسنا التدقيق في صدق ما استخلصناه أو في صدق الأحكام التي أصدرناها.

إن الواقع يملك إمكانية كبيرة على الالتواء والانثناء والاحتجاب؛ وعلاقة أذهاننا به ليست علاقة قابض مع مقبوض، ولا علاقة آخذ مع مأخوذ، وإنما هي علاقة تفاعلية بين ذاتين لينتين؛ مما يقضي بصحة القول: إن محاولات فهمنا للواقع هي أيضاً محاولات إنتاج جديد له. وعلى سبيل المثال فإننا حين نحاول وضع تصور لواقع الالتزام واستقامة السلوك في مدينة معينة، فإننا نجد أنفسنا ضعفاء تجاه الإحاطة بالمفاهيم والأدوات التي نستخدمها في وضع ذلك التصور، كما نجد أن جزءاً من الواقع الذي نريد تحديده متوارٍ يصعب الاطلاع عليه. وبمجرد أن نحاول تقويم واقع الالتزام في مدينة ما، نجد أننا سنختلف في تعريف الالتزام، كما أننا سنختلف في كثير من الأعمال التي تضع المرء في

بؤرة الالتزام، وكثير من الأعمال التي تدفع به إلى حوافه. أضف إلى ذلك أن كثيراً من عقائد الناس وأخلاقهم وسلوكهم لا يظهر لنا على نحو جيد؛ وهذا يجعل أي أحكام على حقيقة التزام الناس وتدينهم في مكان ما، لا تخلو من المجازفة. وتجاه هذه الوضعية، فإننا بحكم الغرور الذي تشبعنا به، نتجاوز كل تلك العقبات والمشكلات، ونندفع لا إلى تصوير واقع الالتزام ولكن إلى تصوير الأفكار التي تملكتنا عن ذلك الواقع.

ولو أنك سألت عشرة أشخاص عن درجة الالتزام لدى أهل بلدة معينة لجاءتك أجوبة عديدة متفاوتة ومتناقضة.

ولست أبالغ إذا قلت: إن كثيراً من الناس حين يحاول تصوير واقع ما، لا يستخدم عقله في محاولة إدراك حقيقة ما يجري، وإنما يلتقط صوراً محددة من ذلك الواقع، وهي بالتحديد تلك الصور التي يمكنها أن تغذي خيالاته ومعتقداته وأحلامه التي امتلكها مسبقاً حول ذلك الواقع. وبذلك فإنه يصور لنا الواقع ليس على ما هو عليه، ولكن على ما يشتهي أن يكون عليه! وهذا كله كثيراً ما يتم على نحو تلقائي بريء ومن غير قصد تشويه أو تزوير، وهذا ما يجعل تصحيحه صعباً.

لا بد أن نعترف أولاً بقصور الأدوات التي تمكننا من فهم الواقع.

ولا بد أن نعترف أيضاً بأن الواقع الذي نريد فهمه يتمتع بطبيعة زئبقية؛ فهو يستعصي على التشكيل. وهذا وذاك يدفعاننا دفعاً إلى الرضا باجتراح سطحي له، وبإدراك جزئي غير مكتمل وقابل للجدل والنقاش، فضلاً عن أنه قابل للزلل والخطأ أيضاً. وحين نؤمن بهذا نستطيع أن نسير في الاتجاه الصحيح لفهم الواقع، وذلك عبر استقصاء منهجي له من خلال تحديد التعريفات

وتقسيم الواقع إلى أصغر وحدات ممكنة، ومن خلال القيام بتحريات منظمة، وتسجيل المشاهدات، وإجراء الإحصاءات التي تساعدنا على زيادة قدرات حواسنا الضعيفة والمحدودة.

وبعد كل هذا نقول: إن التوصيف الذي توصلنا إليه ليس كاملاً، لكنه مناهز للكمال ومقارب له. وإذا لم نفعل ذلك فإن توصيفاتنا للواقع لا تصوره بمقدار ما تصور جهلنا وغرورنا وقلة صبرنا على التعامل مع الأشياء الدقيقة.





٩

الصواب الوحيد



الصواب الوحيد

من الواضح أن الأشخاص الأقل ثقافة لدينا مغرقون في استخدام الألفاظ الدالة على الأشياء المتوحدة، حيث تسمع منهم: العامل الوحيد، والسبب الوحيد، والتفسير الوحيد، والحاجز الوحيد، والعيب الوحيد...

أما الأشخاص الذين نعدهم مثقفين فإن كثيرين منهم يشرحون لك لماذا يعتقدون بالعامل الوحيد والسبب الوحيد... والظاهر أن هناك ولعاً وميلاً نفسياً قوياً إلى التخلص من تكدس الأشياء وإفراد أحدها بالتركيز والتعامل؛ كما أن ذلك يعطينا تفوقاً على الأقران والخصوم في حلقات النقاش ومجالس السمر، حين نثبت لهم أننا قادرون على استخلاص شيء ذي أهمية فريدة، ودلالتهم عليه؛ لكن إلى جانب هذا العامل النفسي هناك عوامل أخرى تدعونا إلى هذا التوجه الفكري والثقافي المجازف، منها:

١ - عدم وجود منافس لذلك المتوحد في ثقافتنا؛ فحين يكون هناك جدب ثقافي وضحالة فكرية، فإن الإنسان لا يهتدي إلى كثير من البدائل التي تتاح لأهل الثراء الفكري، ولذا فإن علماءنا الأقدمين كانوا على حق حين لم يعوِّلوا كثيراً على علم العالم الذي لم يرحل في طلب العلم، ولم يأخذ عن غير علماء بلده؛ لأن السفر يتيح للمرء من المشاهدات والخبرات ما يصعب الحصول عليه في حال الإقامة في بلد النشأة.

وجود المنافس لذلك المتوحد كثيراً ما يأتي من ثراء الثقافة، حيث يتاح للمرء آنذاك عقد المقارنات والموازنات.

ومن هنا كان سكان المناطق الساحلية والمناطق المفتوحة أكثر تسامحاً مع المخالفين وأكثر انفتاحاً وتقبلاً للجدل؛ لأن موقعهم الجغرافي أتاح لهم رؤية ألوان ثقافية عديدة، خففت من حدة النمطية لديهم، وساعدتهم على معرفة ذواتهم على نحو أفضل.

٢- شهرة الارتباط بين شيء وشيء، تدفعنا إلى إهمال غيره، فإذا كان لدينا أَخَوان، أحدهما يذاكر دروسه أكثر من أخيه، ووجدنا بعد الامتحانات أن الذي يدرس أكثر حصل على درجات أكثر من درجات أخيه، فإننا لا نشك في أن كثرة الدراسة هي التي أدت إلى ذلك، ونكون مستعدين إلى صرف الاهتمام عن أي عوامل أخرى مثل الذكاء والانتباه في الفصل والمشاركة في الدرس والظروف التي أحاطت بامتحان كل منهما... وما ذلك إلا لأن العامة من الناس يربطون على نحو قوي جداً بين كثرة ساعات الدراسة والنجاح والتفوق.

٣- الكسل الذهني عامل مهم في عدم العثور على منافس لما نعتقد بتوحده، وذلك الكسل كثيراً ما ينشأ عن طريقة التربية التي تلقيناها، ومن أسلوب الأساتذة الذين علمونا.

إن اعتقادنا بتوحد العوامل والأسباب والمشكلات، يمنعنا من البحث والتفتيش، ويفقر حياتنا وتصوراتنا بل إنه يجعلنا نرفض ما يمكن أن يغايره حتى لو جاءنا من جهات متخصصة. إذا تأملنا في حياة الأمم التي تسيطر عليها الأمية وجدنا أن ما يسميه أهل العلم رأياً من الآراء له حظ من الصواب

وحظ من الخطأ، يسميه الأميون وأشباههم حقيقة قطعية، لا تقبل الجدل. وهذا يفسر لنا المشاحنات التي كانت تجري بين أتباع المذاهب الفقهية والتي قد تصل إلى درجة حبك المكائد لدى السلاطين والمتنفذين. كما أنه يفسر - جزئياً - كثيراً من التنازع الذي يقع بين الجماعات الإسلامية والجمعيات الخيرية اليوم. وذلك الاعتقاد حال دون استفادة المتنازعين من خبرات بعضهم وتجاربهم. وهذا يشكل خسارة كبيرة!




ضعف حساسية العقل
نحو النسبية
١٠

١٠

ضعف حساسية العقل نحو النسبية

هذا القصور يعد من الأمور التي تعود إلى طبيعة الإدراك في العقل البشري، فهو على ما يبدو حين يترك لعمله البدهي يدرك الأشياء على أنها معزولة متفردة، ولا يراها على أنها تشكل أجزاء من منظومات كثيرة. وهذا في حد ذاته يوجد الكثير من الانطباعات الخاطئة، كما يولِّد مشكلات أخلاقية واجتماعية عديدة. ولعلِّي أعرض هذا القصور في النقطتين التاليتين:

١- كثيراً ما ينظر الواحد منا في الأفكار والمعتقدات التي يحملها حول قضية ما - ولتكن إصلاح المجتمع مثلاً - فيجدها غير موافقة موافقةً تامة لما لدى الآخرين، وبالتالي فإنه يجد نفسه غريباً عن الجميع مختلفاً معهم ميالاً إلى مشاكستهم، فلا يرى إلا فرديته، وما يميزه عنهم. وكان في إمكانه أن ينظر نظرة أخرى، فينتهي إلى نتيجة مختلفة. تخيل معي أن ذلك الشخص انطلق من مقدمة تقول: إن كل أولئك الذين يسعون إلى إصلاح المجتمع مجتهدون، فهم يخطئون ويصيبون فيما يبدونه من رأي وما يتبعونه من أسلوب. ومن الصعب القول إن فلاناً منهم قد انفرد بالصواب، وفلاناً قد انفرد بالخطأ. وتصور أنه انطلق من مقدمة أخرى تقول: إني أقوم قرب آراء الآخرين وبعدها عن الصواب الإصلاحي من واقع موقعي ورؤيتي الخاصة لذلك، فماذا سيكون الأمر؟

لا ريب أنه سينتبه آنذاك إلى أن في إمكان كل واحد من الآخرين أن ينظر

إليه عين النظرة التي ينظرها لهم، فيرونه مخالفاً لهم؛ إنه بذلك يدرك أنه جزء من منظومة إصلاحية تشبه المنظومة العددية، حيث يستمد كل عدد فيها قيمته من خلال موقعه من العدد الأكبر والأصغر منه؛ فلو فرضنا جدلاً أن ذلك الشخص كان أقرب المصلحين إلى الحق المطلق فإن قربه منه سيكون مثل قرب الرقم (٨) من الرقم (٩)، وسيكون قرب الآخرين من الحق مثل قرب الرقم (٧) أو (٦) منه. وبذلك يكتشف أن قربه من الحق نسبي كما أن بعد الآخرين منه أيضاً نسبي. وبذلك نكتشف أسباب التماثل والتقارب، لنصل منها إلى التعاذر والتعاون.

٢- حين يُعرض علينا شيء على أنه مفرد، يتكون لدينا انطباع مغاير للانطباع الذي يتكون فيما لو عرض علينا ذلك الشيء على أنه شيء نسبي، فإذا قيل: إن المؤسسة الفلانية، والتي رأس مالها مئة مليون، تصرف على ضيافة زوارها مليوناً في السنة، فإننا سوف ننظر إلى ذلك الرقم على أنه رقم كبير ومسرف جداً؛ لكن إذا قيل: إن المؤسسة تصرف على ضيافة زوارها ١٪ من رأس مالها، فإننا سوف نتقبل ذلك، ونعده شيئاً زهيداً، مع أن المبلغ واحد لم يتغير.

وهكذا فإننا لو وضعنا شمعة في غرفة مظلمة فإنها ستوفر لنا إضاءة ملحوظة؛ لكن لو وضعناها في غرفة مضاءة بمئة شمعة، فإنها سوف تبدو وكأنها لا تشكل أية إضافة. وعلى هذا فكم من فكرة رائعة لم نستفد منها، ولم نحسَّ بها لأنها عرضت ضمن مجموعة من الأفكار. وكم من فكرة عادية قوبلت بترحاب شديد، لأنها عرضت على نحو منفرد. ومثل هذا يقال في كل الأشياء التي تعرض في أماكن خاصة في المعارض التجارية، فإنها تلقى من

الرواج واهتمام الزبائن ما لا تلقاه الأشياء الأخرى. والدعاية التجارية تعمل على هذا المبدأ حيث صار الشيء الذي يحظى بالدعاية لاستهلاكه يتم النظر إليه والتعامل معه على أنه وحيد ومتفرد. وعلى الغالب فإن الأشياء التي يُعلن عنها لا تتمتع بميزات خاصة، ولكن طريقة إدراكنا لها هي التي جعلتها تبدو متميزة.

ماذا يعني لنا كل هذا؟

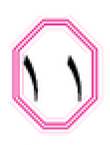
إنه يعني أن خداع عقولنا سهل وميسور، وبإمكان كل واحد من الناس أن يشكل لدينا انطباعات خاطئة، إذا عرف التقنيات التي تجعلنا نرى النسبي مطلقاً.

ويعني كذلك أن العلاقة بين الأشياء والأفكار علاقة متدرجة وذلك التدرج يشكل صلة قربى بينها، وهذا يمكّننا من أن نرى ما يربطنا بمن يخالفنا الرأي، عوضاً عن أن نرى ما يبعدنا عنه.

ويعني من وجه ثالث: أن نقوِّم إنجازات الآخرين وعطاءاتهم وأخطاءهم، لا على نحو مطلق ومعزول، ولكن في إطار ظروفهم وإمكاناتهم. وفي الحديث الذي أخرجه النسائي: «سبق درهم مئة ألف درهم» فالصدقة بالدرهم ممن لا يملك سواه أعظم في الدلالة على سخاء النفس من مئة ألف تصدق بها من يملك أضعافها.




11
الفكر المتصلب



الفكر المتصلب

دعونا نقول في البداية: إن لدى كل واحد منّا درجة من التصلب الفكري، وذلك يعود إلى أمرين:

الأول: أن من تجليات القصور الذاتي للعقل البشري، أنه يظل في حركته متأخراً عن متطلبات الواقع، فهو أثناء عمله يرتكب أخطاء ويوجد مشكلات، ولكن حركته في معالجة تلك الأخطاء والمشكلات تظل بطيئة، وتأتي متأخرة، بسبب نقص ما يتطلبه ذلك من شفافية ومرونة.

الثاني: أن الواحد منا لا يستطيع أن يعثر على نحو مستمر على الحواجز التي يقيمها بين التصلب الممدوح الذي يتمثل في استقرار العقائد والمبادئ والمفاهيم الكبرى، وبين التصلب الذهني المذموم الذي يتمثل في نقص المرونة الذهنية، وفي اعتناق بعض المفاهيم الخاطئة التي تجعل المرء فاقداً للرشد الفكري.

ولعل من أهم سمات صاحب الفكر المتصلب الآتي:

١- صاحب الفكر المتصلب شديد الجمود على أفكاره، وهو غير قادر على التخلي عن آرائه حتى لو بدا له خطؤها، على حين أن صاحب الفكر المرن يذعن للحق، ويتشوق إلى معرفة الجديد سواء أكان موافقاً لما يرى أو مخالفاً له.

٢- اللغة التي يستخدمها صاحب الفكر المتصلب تميل إلى المغالاة والقطعية فهو يستخدم جملاً من نحو: فلان دائماً يكذب، أنا لا أقول هذا أبداً، كلامك لا يمكن قبوله، كل شخص جاهل سيئ وهكذا...

إن المفردات التي نستخدمها هي رموز ذات دلالة قوية على رؤيتنا للأشياء،

وعلى طريقة تفكيرنا؛ كما قالوا: «تكلموا تُعرفوا».

ونحن حين نستخدم الألفاظ الصارمة والمغلقة، نعطي للآخرين شعوراً خفياً بعدم وجود جدوى للحوار معنا، أو وجود إمكانية لتغيير آرائنا، وبذلك نحرم من فضيلة الاستفادة من الآخرين.

٣- لا يشعرك صاحب الفكر المتصلب بأنه شخص عقلاني منطقي، يفكر ضمن معقولية واضحة ومقبولة؛ وهذا شيء طبيعي، فتصلبه الذهني يؤدي إلى تخلف طرحه وتقادم مفاهيمه ومقولاته.

٤- حساسية صاحب الفكر المتصلب لمشاعر الآخرين ضعيفة، ولذا فهو يلقي الكلام على عواهنه، غير آبه بما يسببه لسامعيه من أذى وحرج. وكثيراً ما تكون تعميماته للأوصاف السيئة على الشعوب والقبائل والشرائح العريضة، هي السبب في ذلك. وحين يوصف شعب تنتسب إليه بأنه مخادع، أو ضعيف التدين أو كسول أو غبي، فلا ريب أنك سوف تتضايق من ذلك؛ ولكن صاحب الفكر المتصلب لا يرى في ذلك أي بأس!.

٥- يعطيك صاحب الفكر المتصلب انطباعاً بأن لديه جواباً لكل سؤال. والسبب في ذلك أن ممارسته للمشاركة في التحدث قائمة على عدد قليل من المبادئ والمفاهيم الجاهزة والمحددة، ولذا فهو يحفظها عن ظهر قلب ويسارع إلى استخدامها في محاوراته، وليس عنده أي مشكلة نحو الآثار التي تترتب على عدم صوابها، فهو موقن بها، وليس بحاجة إلى سماع رأي الآخرين فيها.

٦- صاحب الفكر المتصلب ميّال إلى مثالية، تأبى طبائع الأشياء تحقيقها، فهو ينشد الكمال في الوسط الذي يعيش فيه، ويرفض المعلومات الناقصة عن أي شيء ظناً منه أن الأمور لا تسير بغير ذلك. وهذا يعني نقصاً في الشفافية،

وقلة خبرة بواقع الحال.

٧- تمسك صاحب التفكير المتصلب بما هو عليه، يوحي إليه أن الطريق الذي يسلكه، والأسلوب الذي يستخدمه، والحل الذي صار إليه، أمور وحيدة في نوعيتها، ولا يمكن الاهتداء إلى بدائل لها. لذا فإنه لا يعطي أي اهتمام لمسألة البحث عن بدائل أكثر نفعاً وأقل تكلفة، وهو مستعد لتحمل المشاق والآلام إلى ما لا نهاية، حيث لا يخطر في باله أن ثمة مخرجاً مما هو فيه.

٨- يُوجِدُ التصلب الفكري لدى صاحبه نوعاً من الارتباك والتناقض؛ وكثيراً ما نرى المتصلبين فكرياً متورطين في العمل على تنفيذ آراء خصومهم في حياتهم العملية، وتجسيد أهدافهم. وذلك لأن التصلب الفكري يجعل صاحبه يخسر انسجامه الذاتي، كما يجعله عاجزاً عن إدراك مدى منطقية أعماله، واتساق مقدماته مع نتائجه، وهذا كثيراً ما يجعله يعمل لصالح خصومه!.





١٢

الفرار من مواجهة الحقيقة



الفرار من مواجهة الحقيقة

ليس قبول الحقائق والخضوع لها بالأمر اليسير، فنحن نشعر أن أفكارنا وصورنا الذهنية عن الأشياء جزء حقيقي من ذواتنا. وإن أي هجوم علينا وأي تفنيد لها أو تقليل من شأنها، يجعلنا نحسّ وكأن ذواتنا نفسها معرضة للمخاطر. ولا ريب في أن جزءاً من هذه الأحاسيس يعدّ صحيحاً، حيث إن افتراض أننا كوّنا تلك الأفكار بطريقة صحيحة يجعلنا نتمسك بها، وندافع عنها؛ لكن الشيء إذا تجاوز حده انقلب إلى ضده، والوثوق التام بأفكارنا لا يختلف في نهاية الأمر عن الرفض التام لما لدى غيرنا، وكلاهما غير صحيح، ويتنافى مع جوهر أدبيات الاجتهاد.

نحن ننسى الطريقة التي كونّا بها أفكارنا وآراءنا واتجاهاتنا، كما أننا لا نهتم عادة بالبحث في وضعية الأشخاص - سواء أكانوا آباء أو معلمين أو كتّاباً - الذين أثروا في تكويننا الفكري، إذ قد يكونون منحازين أو مشوّهي الرؤية أو خاضعين لأهوائهم، فَسَرَتْ عللهم الفكرية إلينا.

نحن إلى جانب هذا نميل إلى المطالعة في الكتب التي ترسخ المفاهيم التي نؤمن بها، والصور الذهنية التي في حوزتنا، ونكره القراءة في الكتب التي تقول لنا غير ذلك، بل كثيراً ما نشعر بالصدمة حين نسمع من أشخاص ذوي شهرة واسعة آراءً تهدم آراءنا وعاداتنا الفكرية القديمة.

في اعتقادي أننا كما نطالب من يخالفنا الرأي بأن يفتح عقله لسماع وجهات

نظرنا وسماع الآراء المخالفة لرأيه، علينا أن نطالب أنفسنا بالإصغاء إلى وجهات النظر الأخرى. وعلى سبيل المثال فإذا كان الواحد منا متعصباً لدولة بني أمية وإنجازاتها التاريخية في الفتوح فإن من المفيد له أن يقرأ لكتّاب لا يشاطرونه الرأي في ذلك، حيث إن القراءة في كتب تنتقد بني أمية، وتوضح الأخطاء التي وقعوا فيها - وإن لم تكن مصيبة في كل ما تقوله - سوف تعدّل في آرائنا وأفكارنا عنها، وتجعلها أكثر توازناً، وأقرب إلى الصحة. لا ريب أن ذلك قد يشكل صدمة لنا، ولكن من الذي يقول: إن الشعور بالصدمة بين الفينة والفينة ليس ضرورياً لاستقامة حياتنا الفكرية وحمايتها من التبلد والتحجر؟

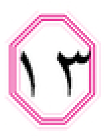
بعض الناس صار نتيجة التمسك بكل آرائه ورفضه لإدخال أي تعديل عليها جديراً بلقب (مشاكس)، حيث إنه لا يقبل فكرة ما إلا لأن الآخرين يرفضونها، ولا يرفض فكرة إلا لأن الآخرين يقبلونها، وهذا أسوأ ما يمكن أن يؤدي إليه الدوران في فلك الذات وإغلاق منافذ البصيرة في وجه أشعة النور القادمة من بعيد...





١٣

التفكير السلبي



التفكير السلبي

يبدو أن قدرة عقولنا على اكتشاف السلبيات أكبر من قدرتها على اكتشاف الإيجابيات، فلو طلبنا من أحد الناس أن يعدّد لنا محاسن زيد من الناس والمآخذ التي يمكن أن تؤخذ عليه، لوجد أن من الأسهل عليه الاهتداء إلى نقائصه وعيوبه. ولست أعلم هل ذلك يعود إلى طبيعة عمل الدماغ، أو أن ذلك مكتسب تربوي ثقافي؟

نحن لا نرى في حقيقة الأمر سوى جزء صغير جداً مما يحدث في العالم، وفي بيئتنا المحلية، مما يجعل معلوماتنا وتصوراتنا عن الواقع مملوءة دائماً بالفراغات. وبما أن الطبيعة تكره الفراغ، فإننا نقوم بملء تلك الفراغات في كثير من الأحيان بالمعاني السلبية، مما يجعل المواد التي نقدمها للدماغ كي يشتغل عليها مصبوغة بصبغة السلبية. إذا أسقط اسم أحدنا في أحد الاجتماعات، أو ذكر في ذيل القائمة، فإننا نسارع إلى الظن بأن ذلك تم عن عمد. إذا تأخر ابنك المسافر عن الوصول في الوقت المعتاد فإنك تميل إلى أن مكروهاً قد حلَّ به حتى تأخر. وقليلون هم الذين يفسرون مثل ذلك على أنه انشغال بامتحانات أو برحلة سارّة..

هذه النقائص في العقل البشري تحتاج إلى أن نعيها أولاً، ثم نحاول بعد ذلك العمل على تلافيها.

عقلنا الباطن لا يميز بين الدوافع التي دفعتنا إلى تبني الأفكار الإيجابية والدوافع التي دفعتنا إلى تبني الأفكار السلبية، ولا في مدى صوابها؛ ولذا فإننا إذا ملأنا عقولنا بالأفكار السلبية فإن العقل الباطن لدينا يتقبلها، ويقوم بترجمتها إلى أنماط سلوكية. والأشخاص الذين امتلأت قلوبهم بمشاعر الخوف واليأس والإحباط والشك والقلق، تتولد لديهم بشكل خفي الأفكار التي تعزز تلك المشاعر، وتصبح سلوكاتهم مبنية عليها؛ فترى الشخص السلبي إذا أراد دخول امتحان فإنه يخاف من الرسوب، ويتوقعه، ويشك في قدرته على النجاح، فيتصرف تصرف المحبط اليائس، وقد يمتنع نتيجة ذلك عن دخول الامتحان؛ مع أن المعلومات التي في حوزته والمقدرة الذهنية التي لديه، قد لا تقل عما لدى الواثقين بأنفسهم؛ ولكن الاتجاه السلبي عنده جعل استفادته من إمكاناته محدودة.

التفكير السلبي يبلور علاقة صاحبه بالواقع وبالآخرين، فهو حين يريد القيام بمشروع - مثلاً - يرى الساحة مزدحمة بالمشروعات المناظرة، ولذا فإنه يرى فرصة نجاح مشروعه معدومة، حتى إذا رأى شخصاً جاء بعده، واستطاع أن يؤسس مشروعاً ناجحاً مثل المشروع الذي أعرض عنه ضرب كفاً على كف، وبدأ يلوم نفسه.

أما الإنسان صاحب الفكر الإيجابي، فيوحي إليه فكره أن فرص النجاح ليست جامدة، بل هي متجددة؛ ولذا فإنه يسعى للحصول على فرصة صغيرة، ثم يفكر في توسيعها.

صاحب التفكير السلبي يحصر نفسه في أحكام محددة ونهائية، فإذا حدث أن صدق معه شخص ما في موقف من المواقف أصدر عليه حكماً مطلقاً بالصدق،

فكل ما يقوله صدق ولا مجال للشك فيه. وإذا كذب عليه شخص أو مصدر في واقعة معينة أصدر حكماً نهائياً عليه، وصار يكذِّب جميع ما يقوله؛ مع أن الصادق قد تند منه كذبة، كما أنه ليس هناك كذاب يكذب في جميع أقواله. وهذا كثيراً ما يوقع صاحبه في مزالق ومشكلات، كما أنه يحرمه من فرص كثيرة.

لدى صاحب التفكير السلبي رؤية محددة للحياة، وهي غالباً رؤية ضيقة ومتحجرة، وهو يفترض أن على جميع الناس أن يوافقوه في تلك الرؤية، لأنه غير قادر على مناقشة أفكاره ولا أفكار غيره، ولا الموازنة بينها.

ولذا فإنه يجد نفسه غريباً وحيداً ناقماً على معظم من حوله، ومن ثمَّ فإن الذين ينجحون في إقامة صداقة جيدة معه يظلون قلة من الناس.

أخيراً فإن لصاحب التفكير السلبي طريقته الخاصة في تفسير الأحداث والمواقف وتلك الطريقة تقوم في الغالب على أسس ومعلومات ومعطيات عتيقة، انتهت مدة صلاحيتها، وذلك بسبب ضعف تفاعله مع الجديد، وضعف قدرته على الانتقال من أسلوب في التفكير إلى أسلوب آخر.





١٤

العجز عن
تقديم تفسيرات متعددة



العجز عن تقديم تفسيرات متعددة

كلما كان الخيال نشطاً، وكانت قدرة العقل في التحليل والتركيب كبيرة، كان الإنسان أقدر على إيجاد البدائل على مستوى التفسير وعلى مستوى الاستخدام العملي. ولا يهمنا هنا الحديث عن أثر ضعف الخيال أو ضعف قدرة الدماغ على التحليل والتركيب في عدم وجود تفسيرات بديلة؛ لأن قدرة الإنسان في تلافي ذلك الضعف والتغلب عليه تظل محدودة. وإنما أود التحدث عن العوائق التي تنشأ عن القصور في التكوين المعرفي، وعن أساليب استخدام المعرفة.

نحن على نحوٍ عام في أمسِّ الحاجة إلى وجود البدائل والتصورات والتفسيرات المتعددة، فالإنسان في حاجة مستمرة إلى الشعور بأنه حر، وأن أمامه خيارات عديدة في معظم شؤون حياته. وهذا لا يتوفر إلا إذا كان هناك بدائل جيدة، يستطيع ممارسة حريته تجاهها.

ومن وجه آخر فإن عثورنا على تفسيرات عديدة لمشكلة ما، يساعدنا على إيجاد طرق عديدة لعلاجها، ولا سيما إذا كان كل تفسير يحظى بنوع من الصدق والمعقولية والقبول. وعلى سبيل المثال فإذا أردنا العثور على تفسير مقبول لانتشار ظاهرة الفقر في العالم الإسلامي – حيث تعيش أعداد هائلة من

المسلمين تحت خط الفقر أو قريباً منه - وجدنا من يقول لنا: إن عدم الالتزام بأمر الله، والانحراف عن هديه في السلوك الشخصي هو السبب في ذلك. وهذا التفسير جيد يوجهنا إلى التأكيد على تحسين مستوى الاستقامة والإنابة إلى الله - تعالى - ولا يرتاب مسلم في علاقة التقوى بسعة الرزق، فالنصوص في هذا جلية وواضحة؛ فالله - جل وعلا - يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ، ٣]. لكن ألا نستفيد أكثر إذا عثرنا على تفسيرات أخرى لا تكون بديلة عن هذا التفسير، ولكن تساعدنا على إيجاد مداخل تفصيلية ومتنوعة تتيح مجال المشاركة في العلاج لأكبر عدد ممكن من الناس، وسيكون من المفيد جداً أن نقول: إن الالتزام المطلوب في الرؤية الإسلامية من أجل سعة الرزق ووفور الخير لا يعني القيام بفعل المأمورات وترك المنهيات فحسب، وإنما يعني أيضاً أخذ المسلم بالأسباب، والجدية في البحث عن فرصة للعمل، والتي قد تقتضي السفر والهجرة من بلده، وقد تقتضي أن يتلقى تدريباً أفضل مما لديه إلخ..

ومن هنا فإننا نرحب بالتفسيرات التالية لانتشار ظاهرة الفقر بين المسلمين:

١ - الكسل والقعود عن طلب الرزق.

٢ - عدم الاستفادة من الوقت المتاح على نحو جيد.

٣ - الفوضى وعدم تنظيم الشأن الخاص.

٤ - الجهل وقلة التدريب على استخدام الآلات وعدم الاهتمام باكتساب المهارات.

٥ - خلط بعض المسلمين بين التوكل والتواكل، فقعدوا عن الأخذ بالأسباب.

٦- قلة الموارد والثروات الطبيعية في بعض أقطار العالم الإسلامي.

٧- الفتن والحروب الداخلية وانتشار الفساد الإداري.

٨- وجود عادات وتقاليد اجتماعية، تشجع على التبذير وإنفاق المال في غير وجهه، مما يجعل الفائض المالي المطلوب لإيجاد فرص عمل جديدة ضعيفاً.

وهكذا يمكن أن نقدم تفسيرات تفصيلية للتفسير الأول الكبير، وتفسيرات إضافية أيضاً لهذه الظاهرة المكروهة. وهذه التفسيرات تساعدنا على طرح برامج عمل للحد من آثار الفقر في أمة الإسلام.

والآن لماذا يرتبك بعض الناس في إيجاد تفسيرات متعددة للظاهرة الواحدة أو إيجاد تفسير بديل لتفسير معتمد؟

أعتقد أن ذلك الارتباك يعود إلى العوامل الآتية:

١- اعتقاد الإنسان بأن التفسير المتاح هو التفسير الوحيد، أو أنه التفسير شبه الوحيد، يجعل البحث عن تفسير آخر شيئاً لا معنى له. وفي مثال الفقر السابق الذكر، كثيراً ما نسمع من يفسر الفقر بسوء التعامل مع المال، وسوء تدبير أمور المعيشة على أنه سبب وحيد.

٢- اليأس من قدرة التفسير البديل على تقديم حل عملي؛ فقد يخطر في بال أحدنا أن الكسل والقعود عن طلب الرزق، هو السبب في فقر كثير من الناس، لكنه لا يقدم ذلك التفسير، ولا يناقشه ولا يفلسفه، لأنه يعتقد أن الكسل من الطباع الملازمة للكسالى ولا فائدة ترتجى من وراء محاولة تغيير الطباع.

٣- وفرة التفاصيل وكثرة المعلومات المتاحة حول أحد التفسيرات التي ذكرناها، تجعل المرء يزهد في البحث عن تفاصيل لتفسير آخر، وفي مثالنا المطروح قد يأتي رجل اقتصادي يرى أن غنى الشعوب معلَّق على نحو جوهري

بغنى أراضيها بالموارد والثروات الطبيعية، وهو على استعداد لأن يأتي بعشرات الأمثلة التي تؤكد تلك الحقيقة.

٤- تعلق الشخص بتفسير عام جداً يمنعه من البحث عن تفسيرات أخرى؛ وإذا فتشت في المسلمين فستجد نسبة غير قليلة منهم تعتقد أن الفقر ناتج بسبب البعد عن الإسلام، وأن العودة إليه تشكل الطريق الوحيد ليصبح الناس في رخاء ويسر. ومثل هؤلاء لا يرون أي فائدة في البحث عن أي تفسير آخر. وإذا ذكر أمامهم تفسير جزئي أو تفصيلي فإنهم يقولون: عد إلى الإسلام وستنحلّ كل المشكلات بما فيها الفقر.

٥- نقص الخبرة الفنية حاجز قوي أمام تقديم تفسيرات بديلة، فإذا سقطت طائرة، وقدّم فريق من المحققين تفسيراً يعده وحيداً لسقوطها، فإن من الصعب على الناس العاديين تقديم تفسيرات بديلة، والحقيقة أن الأميين وأشباه الأميين يظلون عاجزين عن تقديم تفسيرات بديلة ذات قيمة، حيث إن المعرفة عامل أساسي في تكوين عقل جيد يعمل ضمن دائرة المعقول، والذي يحرم منها فإنه لا يستطيع تقديم أي تفسير، وإذا قدم تفسيراً نظر إليه الناس على أنه تفسير تافه.

٦- ضعف الخيال سبب أساسي في عدم الحصول على تفسيرات عديدة للظاهرة الواحدة، وذلك لأن الخيال يقفز خارج نطاق الخبرة المتاحة، وهو حين يكون واسعاً يوقفنا على تفسيرات جديدة تشكل تحدياً حقيقياً للتفسير المطروح. وفي مثال الفقر فإن الذين يجعلون أي تفسير من التفسيرات المطروحة تفسيراً وحيداً مصابون على نحو أكيد بفقر الخيال، إذ لو أنهم تأملوا ملياً في أحوال المسلمين لوجدوا عينات ليست قليلة تعد نموذجاً جيداً يدعم أحد

التفسيرات المطروحة، وبذلك يكون هناك فعلاً تفسيرات عديدة.

٧- ضعف التفكير المنطقي يسد الأبواب أمام تعددية التفسير.

من المعروف أن قصور العقل البشري يتبدى أكثر ما يتبدى عند تعامله مع الظواهر الكبرى ذات الامتدادات الزمانية والمكانية الواسعة، وتلك التي تعايشها أعداد كبيرة من الناس تعد بمئات الملايين، مثل ظاهرة الفقر؛ حيث إن العقل لا يستطيع التعامل بكفاءة مع شبكة معقدة جداً من الظروف والأحوال المؤثرة في تلك الظاهرة، فهو يدرك جزءاً لا يكاد يذكر من أحداث الكون، ويمر الباقي دون أن يعرف عنه أي شيء، ولذا فإنه لا يستطيع أن يفسر ظاهرة كبرى بعامل واحد إلا إذا كان صاحبه لا يعي ما يقول.

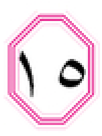
٨- إضافة إلى كل ما سبق فإن التفسير بالسبب الوحيد والعامل الأوحد، لا يتوافق مع الاتجاه العام للشريعة الغراء، ويكفي أن تنظر في الثواب المترتب على فضائل الأعمال، وفي العقاب المترتب على مرذولها لتتأكد من أن الذي يدني المسلم من الصلاح ليس عملاً واحداً، كما أن الذي يدنيه من الفسوق أيضاً ليس عملاً وحيداً، ومن هنا فإنه لا يمكن تفسير الصلاح والفسوق بعامل واحد.





١٥

تفكير المسار الواحد



تفكير المسار الواحد

قصورنا البشري يجعلنا ننظر إلى الوجود على أنه مجموعات من البنى المفككة والكتل المتناثرة؛ وحين نتعامل مع الأشياء نتعامل على أساس تلك النظرة. وإذا تأملنا جيداً وجدنا أن البارئ - سبحانه - وضع الأشياء كلها في إطار شبكة من العلاقات المتبادلة، حتى إنه ليمكننا القول: إن كل شيء يخضع لنوعين من الشروط: شروط ذاتية تحكمه على أنه بنية لها وجودها المستقل، وشروط علائقية تحكم وجوده على أنه جزء من منظومة أوسع، أو على أنه طرف في علاقة مع شيء آخر.

ومن خلال هذه الشروط وتلك تكتسب الأشياء سمة التفاعلية، فنحن في علاقتنا مع بعضنا، وفي علاقتنا مع البيئة المحيطة، لا نحتفظ بنقائنا، ولا نكون دائماً في المركز، وغيرنا على الحواف، كما لا نكون دائماً مؤثرين وغيرنا متأثراً أو العكس، فطبيعة التفاعل تقتضي أن يحدث تغير في وضع كل واحد من أطراف عملية التفاعل إلى درجة تبادل الأدوار، حيث يصبح الآخذ معطياً والمعطي آخذاً.

فإذا نظرنا النظرة الصحيحة إلى الأمور استطعنا أن نصهر الأشياء المتناقضة والمتضادة في بوتقة واحدة، فيصبح الضد بمثابة الحليف لما يضاده، بل أقول: يصبح الضد مكملاً لما يضاده وعامل ترقية وتقدم له. وقديماً قالوا: إن للشوهاء

فضلاً على الحسناء لأنه لولا الشوهاء لما عرفت الحسناء.

تفكير المسار الواحد يجعلنا نرى الشيء مؤثراً غير متأثر، أو متأثراً غير مؤثر، كما يجعلنا نرى الأشياء معزولة عن محيطها. وهذا يجعل مشاعرنا وتقويماتنا ومواقفنا تجاه كل ما نفكر فيه ونتعامل معه مشوهة مختلة، وذلك يسبب لحياتنا وعلاقاتنا أضراراً بالغة. وسأضرب بعض الأمثلة التي توضح ما أريد تقريره هنا:

١- النقد والبناء بنيتان مختلفتان، ويمكن أن ننظر إليهما على أنهما شيئان متضادان، فالذي يبدو لنا أن البناء عمل تنفيذي إيجابي، على حين أن النقد شيء نظري سلبي؛ لكن عند التدقيق نجد أن كل واحد منهما مكمل للآخر، فنحن ننتج شيئاً ما، ثم نقوم بنقده وتقويمه أو يفعل ذلك غيرنا؛ وبناء على ذلك النقد نغير في ذلك المنتَج. وهكذا فالمنتِج قدم مادة للناقد يمارس فيها فنه، ولولاها لما كان ثمة نقد.

والناقد قدم خدمة للمنتِج حيث يمكنه من ترقية إنتاجه. وهكذا فتقدم البناء مرهون بوجود النقد، ووجود النقد مرهون بوجود البناء. وعلى هذا فالمنتجون بحاجة ماسَّة إلى النقاد، والنقاد بحاجة إلى المنتجين العاملين، وبذلك يكون تكامل الضدين أو المختلفين. وهذه الرؤية مختلفة تماماً عن رؤية الذين لا يرون إلا عداوة النقاد لأصحاب الأعمال، والذين لا يرون سوى سذاجة المنتجين وأخطائهم كما يصورها النقاد، كما لا يرون فضل العاملين على النقاد.

٢- التربية عملية تفاعلية، وسواء أكانت التربية شيئاً نمارسه في البيوت على صورة تهذيب وغرس للقيم، أم كانت شيئاً نمارسه في المدارس على هيئة تعليم وتدريب. وقد كانت النظرة القديمة تصور المربي مع من يربيه على أنهما

طرفان، ولكل طرف سمته وآدابه، كما أن تلك النظرة كانت تحكم على العلاقة بين الطرفين على أنها علاقة جامدة متكلسة، لكن الحقيقة ليست كذلك، فالآباء والأساتذة لا يشكّلون الطرف الذي يربي فقط، كما أن الأبناء لا يشكلون الطرف الذي يتربى فقط كما يظهر للوهلة الأولى، فكل واحد منهما يربي ويتربى في آن واحد؛ إذ إننا معاشر الكبار نحمل معنا شيئاً من طفولتنا إلى سن متأخرة، وبذلك نملك دون أن نشعر القابلية لأن نتربى ونتغير ونتعلم من الذين نربيهم ونعلمهم، فمهارات التربية والتعليم لا نكتسبها لولا الأبناء والطلاب؛ ولو تأملنا في تساؤلات طلاب الجامعة ومناقشاتهم وملاحظاتهم، لوجدنا أنها توفر لأساتذتهم الكثير من الأفكار والمعاني الجديدة. إن كل واحد من الطرفين يعطي ويأخذ، ويغير ويتغير، ولا وجود لأحدهما دون وجود الآخر. هذه الرؤية تفتح أمام المربين أبواباً جديدة للتعلم والفهم والاكتشاف عوضاً عن الرؤية القديمة التي لا يبحث المربي من خلالها إلا عن خضوع الذين يربيهم وامتثالهم.

٣. الرؤية الإسلامية في هذا الشأن فريدة ومدهشة حيث تعلمنا النصوص أن الخير والشر لا يكمنان في طبائع الأشياء، وإنما في نوعية علاقتنا بها وردود أفعالنا عليها، وهذا واضح في قوله - عليه الصلاة والسلام -: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له».

الذي يفكر في مسار واحد ينظر إلى الآلام والمحن والمصائب نظرة أحادية، فلا يرى فيها إلا المنغصات، لكن النبي -ﷺ- يعلمنا كيف نضيف إلى تلك النظرة نظرة أخرى لنرى فيها شيئاً آخر على نحو ما ورد من قوله -ﷺ-: «لا تسبوا الحمّى، فإنها تذهب خطايا بني آدم كما يُذهب الكير خَبَث الحديد».

إن المرض عبر هذه الرؤية المركَّبة ليس مصدراً للآلام فحسب، ولكنه مصدر لتكفير الخطايا ونيل الحسنات.

إن كثيراً من رؤيتنا المشوّهة للأشياء نابع من أننا تعودنا ملاحظة وجه واحد وملاحظة اتجاه واحد لها، فينتهي بنا ذلك إلى أن علاقات الكون قائمة على الصراع، كما هو حال الرؤية الغربية في هذا الشأن.

أما الرؤية الإسلامية، فتجعلنا نشعر بتآلف الكون وتكامله وتسخير بعضه لبعض، وعالمنا الحاضر بحاجة ماسَّة إلى هذه النظرة.




١٦
شدة
التمسك بالقديم

الفكر المتجددة. ومع وضوح هذا، إلا أن التطبيق العملي له شاق وعسير، فالعقل البشري لا يملك المرونة الكافية للتخلي عن الأفكار والمعلومات القديمة التي أكل الدهر عليها وشرب.

خذ مثلاً تمسك الناس بالمعلومات الطبية القديمة حول أسباب بعض الأمراض وفوائد بعض الأعشاب، حيث إن هناك عشرات الكتب التي ما زالت تطبع وتباع دون أن تحظى بأي نقد أو تعديل على الرغم من رفض الطب الحديث لكثير مما فيها من معلومات وتعليلات.

انظر أيضاً إلى تقديس كثير من الناس الآن أقوال كثير من العباد السابقين، وتقديسهم لكثير من آراء العلماء السابقين ومقولاتهم في كثير من العلوم، مع أن ما تراكم لدينا من معلومات وخبرات ومفاهيم ممتازة، يجعل ما يقدسه بعض الناس ضرباً من الوهم والخرافة. وليس من المستغرب اليوم أن تجد من يحمل أعلى الشهادات في الشريعة وهو يجزم بأن الدعاء الذي دعا به الشيخ الفلاني ينفع في توسيع الرزق، أو رد الضالة، أو تحسين أخلاق الزوجة، أو شفاء المرض الفلاني ويقدمه على الأدعية النبوية المأثورة، أو تجد من يحمل أعلى الشهادات في علم التاريخ، وهو يسرد لك حكايات وقصصاً خارجة عن نطاق أي معقولية تاريخية، ويردها المحصول المنهجي المعاصر لعلم التاريخ، دون أن يكون قادراً على نقدها، أو تمحيصها وبيان ما تحتمله من تعديل وتهذيب. وما ذلك إلا لأن تلك الحكايات وردت في الكتاب الفلاني، أو رويت عن العَلَم الفلاني.

إن كثيراً من الإشكالات المنهجية يمكن حله من خلال القيام ببعض الأشياء الصغيرة. وعلى سبيل المثال، فإذا أردت أن تتخلص من العقابيل التي يولدها تطاول الأزمان، ومن مشكلة اليقين المصطنع الذي يضيفه بعض الأتباع

والمنتفعين وضعاف العقول إلى بعض ما هو اجتهادي محض، فارجع إلى الوراء، وتحسس الوضعية التي كان يحتلها الشخص، أو القول أو المذهب أو المفهوم في مرحلة نشأته، لتقف على وجهات نظر المعاصرين الذين عاشوا في تلك المرحلة وعلى آرائهم فيه، وآنذاك فسوف يسقط أمامك الكثير من الأغشية والهالات، وستعلم أن بعضاً مما نعده فوق النقد ظل منتقداً مدة قرن أو قرنين من قبل أشخاص نعدهم أفضل وأعلم منا، ثم حدثت عوامل غير موضوعية جعلت الناس يمنحونه مكانة لا يستحقها، ويضفون عليه تقديساً ليس له.

لن يكون لنا استغناء عن القديم من الآراء والأفكار والمفاهيم والمعلومات.. ولكن حاجتنا إليه يجب أن تتجسد في جعله مواد يشتغل عليها العقل اقتباساً وتوظيفاً وتعديلاً وتنمية ونقداً وتزييناً، لا أن نصبح أسرى له. والتعامل معه على أنه مجموعات من المعطيات الجاهزة والصافية سيضر بحركة التفكير، وسيبعدها عن الواقع المعيش، وهذا يجعلها جهاداً في غير عدو.





١٧

مجاوزة البحث في الواقع إلى التفكير النظري



مجاوزة البحث في الواقع إلى التفكير النظري

هذا العيب يشكل ما يشبه العاهة الدائمة والملازمة لاستخدامنا لعقولنا في الكشف عن الحقائق وحل المعضلات. إن العقل حتى يعمل بطريقة جيدة في التعامل مع الأمور المادية، يحتاج إلى قدر كاف من المعلومات، ولكن شواهد الأحوال تدل على أننا في الغالب لا نجد المعلومات التي تحتاجها عقولنا في بحث كثير من القضايا، ولا سيما القضايا والظواهر الكبرى، مثل التخلف والتراجع الحضاري والتلوث والفقر ومخلفات الحروب وما شاكل ذلك..

وبما أننا لا نستطيع أن نقف مكتوفي الأيدي دون أن نبحث ونقوِّم، ونصدر الأحكام، فإننا نقوم بفعل ذلك اتكاءً على ما لدينا من معلومات قليلة، وعلى ما لدينا من تصورات ومفاهيم عامة. وأذكر في هذا الصدد المؤتمر الوهمي الذي تصوّر عبد الرحمن الكواكبي انعقاده في مكة المكرمة، وأصدر حول طروحاته ومداولاته كتابه «أم القرى»، حيث تخيل اجتماع وفود تمثل معظم أقطار العالم الإسلامي في الأرض، هادفة إلى تحديد طبيعة الأدواء والعلل التي يعاني منها المسلمون ووصف الأدوية الناجعة لعلاجها. وقد قام كل وفد من الوفود بعرض رؤيته في شأن الداء والدواء. والملاحظ على تلك الطروحات التي

تخيلها الكواكبي أنها تبلورت بناء على انطباعات عامة، وليس على معلومات وأرقام محددة. وهذا ما نفعله في غالب الأحيان.

لا يعني هذا بالطبع انعدام وجود وظيفة حقيقية للتأمل والنظر المجرد، فللتفكير التجريدي دوره الأساسي في اكتشاف جميع الحقائق والقوانين الرياضية، وكذلك في تقدير ما قد يكون حدث في الماضي من وقائع، والإيحاء بإمكانات واحتمالات جديدة، لكن ذلك يتم طرحه على أنه من الأمور الظنية غير المؤكدة. لكن الفكر البشري لا يستطيع أن يخطو خطوة واحدة واثقة في علم الاجتماع دون أن تُجمع له المعلومات الملائمة حول أمور مثل وضعية التواصل الاجتماعي في بيئة ما، ودور الثقافة الشعبية في استمرار المجتمع والعوامل المؤثرة في تطوره وما شابه ذلك... كما أنه لا يستطيع أن يحرز أي تقدم في علم الاقتصاد – مثلاً – دون البحث في مسائل مثل إنتاج السلع وتوزيعها والندرة والتضخم والبطالة ... وهكذا باقي العلوم.

الروح المعادية للعلم هي التي تدفع الناس إلى تصور المسائل والمشكلات ذهنياً، والتعامل معها وحلها أيضاً ذهنياً، وإن على كل واحد منا – أياً كان عمله – أن يقاوم هذه الروح؛ لأنها تصيب فنَّ التفكير في مقتل من مقاتله؛ وحين يصاب ذلك الفن بالعطب لن نكون قادرين على فهم الواقع ولا تطويره في اتجاه الأحسن.

يأتي من يقول لك: إن الأمراض النفسية تنتشر بين الناس بقوة في هذه الأيام، وإن الطبيب النفسي (خالداً) قد جنى الكثير من المال من وراء معالجته لمرضاه، وبناء على هذا فقد قررت أن يتخصص ابني في الطب النفسي حتى يجلب لنفسه ولنا الثراء. هذا التصور نظري مجرد، والحصول عليه سهل، وهو

ما يلجأ إليه معظم الناس في معالجة كثير من القضايا؛ لكن حين ننظر فنجد في المدينة التي يعمل فيها الطبيب خالد خمسة أطباء نفسيين لا يكادون يحصلون من وراء مهنتهم على رزقهم اليومي، ندرك أن الأمور لا تُتناول بهذه البساطة، ولذا فلا بد - حتى نخمن مدى النجاح الذي يمكن أن يصيبه طبيب نفسي- سوف يتخرج بعد أربع سنوات - من دراسة عدد من المعطيات، منها نسبة النمو السكاني ونسبة ازدياد انتشار الأمراض النفسية في المنطقة، ودور الكفاءة العلمية والمهنية في نجاح الطبيب خالد، ودور أخلاقه وشخصيته وقدرته على إقناع المريض بالوثوق به، إلى جانب موقع عيادته وخلفيته الأسرية وما شابه ذلك. وبما أن الحصول على هذه المعطيات ليس متاحاً على وجه كامل، وبما أنه قد تجدّ ظروف تغيّر من وزن كل هذه المعطيات، فإن أحكامنا على مدى ما يمكن أن يحققه طبيب نفسي جديد من نجاح لن تكون إلا ظنية، ولكننا مع هذا نكون قد فعلنا ما يمكن فعله.

من المهم حتى لا نقع في هذا الخطأ أن نحدد بدقة المجالات التي يمكن أن يعمل فيها العقل عن طريق النظر المجرد، والمجالات التي لا يستطيع أن يعمل فيها إلا بواسطة المشاهدة والفحص والمعلومات والمعطيات التي تنير دربه، وتضيء القضية التي يريد علاجها.





١٨

الوثوقية الزائدة



الوثوقية الزائدة

نحن بني البشر كثيراً ما نرتبك في العثور على الخط الفاصل بين الأشياء المتشابهة والمتقاربة. ويبدو أن اللغة والمصطلحات التي نستخدمها، تؤدي دوراً مهماً في هذا الشأن. نعم نحن بحاجة إلى شيء من الوثوق في صحة الأفكار والرؤى والتوجهات التي نعدها صحيحة، وإلا لكنا شكاكين أو (لا أدريين)، ولكن المشكلة دائماً تكمن في محو هامش الخطأ عما نراه صواباً، ورفع درجة الوثوق بما اجتهدنا في الوصول إليه من أفكار ومفاهيم. إن امتلاك أحدنا لشهوة الفهم أمر ضروري من أجل السير في طريق اجتراح المجهول وكشف الغامض، وتمييز الأشياء الملتبسة؛ لكن المشكلة تبرز حين تتحول شهوة الفهم لدينا إلى شهوة اعتقاد، فنحول الظنيات إلى قطعيات والأفكار إلى عقائد لا تقبل الجدل ولا الشك. مع أن الأفكار حتى تظل حية وفاعلة تحتاج إلى أن تحتفظ بقابلية النمو والتجدد، وتلك القابلية لا تتوفر لها إلا إذا أبقيناها في دائرة الاحتمال حيث نتركها آنذاك منفتحة على معطيات الخبرة والتجربة والبحوث الجديدة..

بعض الناس يستخدم عقله في فهم أسباب التخلف التقني الذي يعيشه المسلمون اليوم، ويحصل من وراء ذلك على مجموعة من الأفكار والمقولات المحددة حول ذلك، لكنه سرعان ما ينسى أن هناك أشخاصاً كثيرين لا يقلّون عنه نباهة وخبرة لا يوافقونه في كل ما يذهب إليه، وأنه ليس من شأن التفكير في

مسائل التقدم والتخلف أن يمنحنا اليقين، ويتحفنا بالمقولات النهائية الجازمة، ولذا فإن الحق الصريح شيء يصعب الوصول إليه دائماً، وهو كثيراً ما يكون موزعاً بين المجتهدين. وذلك النسيان يجعله ينشئ لنفسه منظومة إدراك وتأول يفهم من خلالها العالم، كما يجعله يبني هيكلية نفسية محددة تولد المشاعر التي تدعم منظومة الفهم لديه، كما تتغذى منها.

المصابون بداء الوثوقية الزائدة يغمضون أعينهم عن المعطيات الجلية الظاهرة، ويضخمون الأشياء الاستثنائية، وكل ذلك في سبيل إضفاء يقين مصطنع على مجموعة الأفكار التي بلوروها من خلال محاولات الفهم الدائبة، ويساعدهم على ذلك التشابك الكبير الموجود بين الخطوط والمعطيات الاجتماعية والحضارية، مما يتيح لهم ولغيرهم مساحة واسعة من الحرية للقراءات المتنوعة.

قد كان أئمة الفقه رائعين جداً حين قالوا: مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب. حيث فرقوا على نحو قاطع بين العقائد التي لا يصلح لها سوى الوثوق التام، وبين معطيات الاجتهاد التي لا يلائمها سوى الترجيح والظن والاحتمال.

وإن بوسعنا أن نقول في حقل الاجتهاد الحضاري: إن مذهب غيرنا صواب يحتمل الخطأ، كما أن مذهبنا كذلك صواب يحتمل الخطأ، حيث يتوفر لنا الكثير من المرونة والسعة، إذ إننا لا نسعى في هذا المجال إلى الوصول إلى حق وباطل وصواب وخطأ، وإنما إلى توسيع قاعدة الفهم وتوليد بعض المؤشرات والدلالات التي تغني الممارسة الحضارية وتساعد على تطويرها.

إن عجبي لا يكاد ينقضي من أولئك المثقفين الذين يقتلون أوقاتهم في شرح آرائهم والدفاع عنها مع علمهم بهشاشة الأسس التي قامت عليها تلك الآراء!

وكان عليهم عوضاً عن ذلك أن يوفروا الجهود في الدفاع عن آرائهم وتفنيد آراء خصومهم من أجل بذلها في نقد تلك الآراء ومحاولة تطويرها لتصبح أكثر دقة واكتمالاً.

إن الوثوقية الزائدة بمعطيات الاجتهاد تشبه الشكوك في مسائل العقائد، حيث تتحول الظنيات هناك إلى عقائد، وتتحول العقائد هنا من ثوابت لتأطير الخلاف إلى مسائل مختلف فيها. وإن المتقدم على الصف كالمتأخر عنه حيث يؤدي كل منهما إلى اعوجاجه.




١٩
التفكير الانتقائي



التفكير الانتقائي

المقصود بالتفكير الانتقائي أن نصور سيرة شخص، أو وقائع حادثة من الحوادث، أو خصائص مذهب من المذاهب اعتماداً على أجزاء منها وإهمال الباقي، كما يفعل الذي يحب قائداً من القادة العظام، فيثني على شجاعته وكرمه ومروءته، ويتخذ من ذلك وسيلة إلى إضفاء نوع من القداسة عليه مع غض الطرف عن جوانب مهمة في شخصيته مثل كونه: لا يصلي، ولا يصوم، ويأكل أموال الناس بالباطل... إن الذي يفعل ذلك يقوم بعمل انتقائي.

وقد يلتبس التفكير الانتقائي بمظهر آخر معاكس حين يتم تقويم شخص من الأشخاص من أفق سيئاته وسلبياته، مع غض الطرف عن محاسنه ومحامده.

لا بد أن نقول: إن الانتقائية على المستوى الأخلاقي نوعان: نوع تلقائي غير مقصود، كما يحدث مع المؤرخ في تصوير الوقائع، فالروايات المتعددة والمتضاربة أحياناً حول حادثة ما، تملي عليه أن يختار منها ما يتناسب مع رؤيته العامة لتلك الحادثة. وحين تتوفر معلومات كثيرة حول واقعة ما، فإن المؤرخ سيضطر إلى الاختيار والانتقاء، وإلا خنقه سيل الأخبار المجدبة التي لا تربط بينها أي رابطة. أضف إلى هذا أن ثقافة المؤرخ وحدسه ومدى اطلاعه على الحادثة التي يؤرخ لها إلى جانب مزاجه وخياله.. كل ذلك يسهم في تشكيل الصورة التي اجتهد المؤرخ في تقديمها؛ وهذا يجعل التاريخ كله انتقائياً.

هذا النوع من الانتقاء لا يوقع صاحبه في الحرج والمؤاخذة إذا بذل جهده في جعل عمله موضوعياً ودقيقاً ووافياً إلى أقصى حد ممكن.

وثمة نوع ثان من التفكير الانتقائي، لا يكون سببه وعورة الموضوع، أو القصور في الأدوات والوسائط المعرفية لصاحبه، وإنما ينشأ من ضعف أمانة صاحبه، ونقص حرصه على وضع الأمور في نصابها، كما ينشأ بسبب سيطرة أهوائه ومصالحه الخاصة عليه. وهذا اللون من التفكير يشكّل إخلالاً بواجب قيام المسلم لله - تعالى - بالحق والعدل في المنشط والمكره، إلى جانب أنه يفرز الأوهام والضلالات التي يفرزها النوع الأول من التفكير الانتقائي، والذي قلنا: إنه تلقائي وغير مقصود.

إن الانتقاء بنوعيه المقصود وغير المقصود يكاد يكون قانوناً من قوانين الإدراك وجزءاً مهماً من عملية اشتغال العقل، وهو يصور الأشياء. إن تفكيرنا حين يأتي لاستيعاب ظاهرة ما، يحيلها إلى حطام ليصطفي منها صوراً معينة تتناسب مع محتوى مخزوناته، فالإنسان لا يشاهد كل ما تقع عينه عليه، حتى القارئ لنص من النصوص لا يمتص منه إلا ما يتناسب مع مركبه العقلي والصور الذهنية المحفوظة لديه حول مضمون ذلك النص.

ومعتقدات الإنسان هي الأخرى توجه طريقة التقاطه للخصائص والميزات والعيوب على حد قول الشاعر:

وعينُ الرِّضا عن كلِّ عَيْبٍ كَليلةٌ
كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المَساوِيا

فالمعجبون بالنظام الرأسمالي - مثلاً - لا يرون منه سوى رعايته للحرية الفردية وعظم إنتاجيته الاقتصادية، ويغضون الطرف عن التفاوت الطبقي

الذي يغذيه، وعن استغلال الأغنياء للفقراء الذي يؤسس له، وعن الضغوط النفسية الهائلة التي تسببها نظم العمل التي يرعاها.

أما المعجبون بالتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، فإنهم يذكرون الإنجازات العلمية والطبية والنماذج الأخلاقية الرفيعة التي قدمتها الأمة في مختلف المجالات، ويغضون الطرف عن الفتن والحروب الداخلية، والمذاهب والفرق الضالة، وأشكال الخرافة، وألوان الفقر التي كانت تجتاح الأمة على مختلف المستويات.

أما الزاهدون في التاريخ الإسلامي، والمعادون له، فيذكرون ما نسيه الفريق الأول، وينسون ما يفاخر به، وهكذا...

إن من واجبنا الشرعي والأخلاقي والحضاري، أن نحاول أولاً إدراك الصورة على ما هي عليه، ثم التعبير عنها على نحو منصف، وإلا كانت أعمالنا الفكرية الشفوية والمكتوبة ليست أكثر من تشويه للواقع وللتاريخ ولعقول الناس أيضاً!.


٢٠
التهويل

٢٠ التهويل

الإفراط في وصف الأشياء والحكم عليها في حالتي المدح والذم من العلل المستحكمة في حياتنا الفكرية، وفي لغة الخطاب اليومي. وأعتقد أن استقامة التفكير ستظل حلماً بعيد المنال، ما لم نستطع تسليط المزيد من الأضواء على مناطق التماس بين العقل والعاطفة والمبدأ والمصلحة والذات والموضوع و(الأنا) والآخر، وما شاكل ذلك من هذه الثنائيات، حيث إن كثيراً من أخطاء التفكير، ينشأ نتيجة انعدام التوازن في أشكال العلاقة بين هذه الأشياء. والتهويل يشكل منتجاً من منتجات طغيان العاطفة على العقل، حيث إننا إذا أحببنا شيئاً، وفُتنَّا به، حاولنا تأمين شرعية ذلك الافتتان عن طريق كيل المدائح وإبراز المحاسن ورفعه إلى مستوى الأساطير والخوارق.. وإذا أبغضنا شيئاً، حاولنا أيضاً تسويغ ذلك البغض، عن طريق إبراز مساوئه وعيوبه.

والهدف من الحالتين واحد، هو إظهار توازننا العقلي والنفسي من خلال صواب موقفنا، وعلى هذا فممارستنا للمديح والذم هي شكل من أشكال خدمة الذات على المستوى العميق.

يبدو أن التهويل والمبالغة في وصف الأشياء أثر من آثار الأمية وقلة انتشار الكتابة، حيث إن الكتابة تنمي التجريد، وتجعل التواصل بين الناس يتم بطريقة غير مباشرة، وبذلك تبتعد المفردات اللغوية إلى حد بعيد عن ساحات النزال

اليومي المباشر، حيث يكون صوت العواطف والانفعالات هو الأقوى لأن استجابتها آنية. أما الأحكام العقلية، والتي تتكون ببطء، وتحتاج إلى الأناة والروية، فإنها تتراجع في حالات التواصل الشفهي، ولذا فإن التهويل لدى الشعوب المثقفة ثقافة كتابية عالية يتراجع تراجعاً ظاهراً، وما يبقى منه يكون - في أكثر الأحيان - بسبب نزعة الأنانية وتقديم المصلحة على المبدأ، وهذا واضح لدى كثير من المثقفين، حيث يحاول أهل كل تخصص إقناع الناس بأهمية تخصصهم، وتوقف تقدمهم ورقيهم على انتشاره والسير وفق مقولاته ومفاهيمه.

التهويل يتجلى في المدح والذم بوصفهما طرفا معادلة، إذ إن مديح فلان من الناس يقتضي ذم نظرائه ومنافسيه، كما أن ذم شخص من الناس يقتضي أيضاً مديح أنداده وخصومه. وللعاطفة أيضاً تأثيرها في هذا، فكما أن القلب لا يتسع لحبين، فكذلك الساحة لا تتسع لبطلين، فإذا وجدا فلا بد من إخراج أحدهما ولهذا كان لدينا فنَّانِ عتيدان من فنون الشعر، هما فنا المديح والهجاء. ولم يقتصر ذلك على الشعر بل تعداه إلى مجالات معرفية وثقافية أخرى، فكتّاب السير والتراجم - مثلاً - لا يشعرون أنهم يستطيعون القيام بعملهم دون فعل ذلك، ونظرة في الكتب التي ترجمت لرجال المذاهب والمدارس العلمية تُظهر ذلك على نحو جلي، فالثناء على البصريين لا يكتمل من غير ذم الكوفيين، ومديح المذهب الشافعي - مثلاً - يقتضي ذم المذاهب الأخرى. والترغيب في الآخرة يقتضي الحط من شأن الأعمال الدنيوية.. والنتيجة لكل ذلك ضياع الحق والحقيقة.

التهويل في مديح بعض الأشخاص، وصل في تاريخنا وواقعنا إلى مستويات خطيرة، حيث لا يقف الأمر عند انتقاص كرامة المادح فقط، ولكن يتجاوزه إلى

جرح صفاء عقيدته!.

ليس التهويل خطأ على مستوى الفكر، أو على مستوى الأخلاق فحسب، وإنما يشكل إلى جانب ذلك مؤشراً واضحاً على اختلال علاقتنا ببعضنا، وعلاقتنا بالأشياء الأخرى، حيث يجد الأميون وأشباه الأميين أنفسهم مستقطَبين إلى عالمين متنافيين متباعدين: عالمي الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والحق والباطل... وحين شددت النصوص الشرعية على ضرورة التزام أكبر قدر ممكن من الدقة في أعمال اللسان، وضرورة التزام الحق والعدل في تقويم الأشخاص والأشياء، كان الهدف من ذلك إحقاق الحق، وإيجاد أساس جديد لتوازن الشخصية على المستوى الفردي وعلى المستوى الاجتماعي، من أجل استقامة ديننا ودنيانا.




٢١
الاعتزاز
بالامكانات الشخصية



الاغترار بالإمكانات الشخصية

طبيعة الإيمان بالله - تعالى - وأنه الرب القادر الخالق العظيم، وأن الكون جميعه من خلقه ومملوك له، وأن الناس عبيده ومحتاجون إليه.. أقول: طبيعة هذه المعتقدات، تضفي معانٍ ثرية على حياة الإنسان وتشعره بالأمان، كما توفر له آفاقاً رحبة للسمو والتقدم والارتقاء؛ لأنه كلما شعر بعظمة الخالق - سبحانه - أدرك نقصه، ونقاط ضعفه، ومحدودية إدراكه وطاقته.

والفكر العلماني المتطرف، الذي نسله عصر التنوير في أوروبا، قد أوهم العقل الأوروبي بأنه قادر على حل كل المشكلات، وإيجاد كل البدائل، وتجاوز كل الحدود التي وقف العقل القديم حائراً أمامها... وقد بدأت هذه الأوهام تنتشر في أرجاء الأرض، وأشاعت نوعاً من الغرور والمثالية والرضا عن الفكر السائد. وقد كان طلاب العلم قديماً يشعرون بضآلة ما حصَّلوه وبحاجتهم إلى المزيد. أما اليوم فإن طلاب الجامعات لم يحصّلوا إلا القليل من المعلومات، ولم يمتلكوا الرؤية المنهجية المطلوبة للتقدم في تخصصاتهم، ومع ذلك فإن الواحد منهم يشعر بأنه باحث خطير، وقادر على الاستقلال العلمي والفكري من خلال بحث صغير يقوم به، ومن خلال مذاكرات محدودة مبتورة قدم فيها امتحاناً، ثم لم يعد إليها أبداً، فنسي جلّ ما فيها.

هذا الغرور زهّد الناشئة في البحث عن الحقائق كما هي مجسّدة في الواقع، وذلك لأن من شروط الاندفاع المخلص في الكشف عن المجهول، الشعور بوجود مشكلة، أو نقص، أو فراغ في الأنساق والهياكل المعرفية لدى الباحث.

والذي ينظر في تاريخ العلوم يجد أن مجرد الإحساس بالجهل يسبب في حالات كثيرة تقدماً للعلم، وإن ميلاد فَرَضية قيِّمة يشكّل أساساً من أسس التقدم العلمي؛ لكن الفرضيات تُسبق في معظم الأحوال باستفهامات عامة وشاملة عن الجهل المحيط بالقضية موضوع الفرضية.

ونحن لم نتعود الحديث عما لا نعرف، ولا نجد من الوقت ما يتسع لذلك، مع أن الجهل الذي لا يتم الاعتراف به، تتوله منه في الغالب ضلالات كثيرة، إن لم تكن في أذهان العلماء والباحثين ففي أذهان الطلاب وأنصاف المثقفين وأذهان أولئك الذين ينشرون الثقافة، ويعلقون عليها. وهذا على كل حال أعطى انطباعاً زائفاً بالامتلاء الثقافي.

ويبدو أن الثقة بالفكر الشخصي لا تستمد من المفاهيم التي أشاعتها العلمانية في العصر الحديث فحسب، وإنما هناك شيء مركوز في الدماغ يشجع على ذلك، فالإنسان على ما يبدو ينفر من البحث في الواقع، ويرضى بالصورة المتجزئة والمشوهة التي يقدمها تفكيره له، ويرى في الومضات الشاحبة التي يحسها في أعماقه ما يكفي لإرضائه وتقديمه على نظرائه، وهي في حالات كثيرة كافية لنيل الحظوة والمجد.

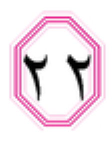
وقد يكون الرضا عن الإمكانات الذاتية والتفكير الشخصي نابعاً من أن الإنسان إذا اتجه إلى تكوين أفكاره عن طريق المسح للواقع والغوص في طياته، وجد عقبات كثيرة وتشجيعاً قليلاً!.

عقلاء الغرب الذي أشاع الاغترار بإمكانات العقل، شرعوا الآن في العودة إلى جادة الصواب، بعد أن رأوا بأم أعينهم الهوة الفاصلة بين المثالية التي أوجدها الغرور، وبين الواقع المعيش، وقد صار كثيرون منهم يشعرون بأن أحلاماً أكثر تواضعاً تظل أقرب إلى التحقيق، يقول أحدهم: إننا حتى نردم الهوة بين الواقع والمثال، فإن علينا أن نعود القهقرى نحو الواقع، وأن نحدد أهدافاً بسيطة متواضعة، فلا يكون مطلبنا حياة أسرية كاملة بل حياة تتخللها حالات طلاق أقل، ولا نأمل في استئصال المسلسلات الإذاعية والتلفازية الهابطة بل برامج أفضل توازناً. ولا نرجو أماناً اقتصادياً، بل حالات كساد أقل دماراً وأقل بطالة. ولا نريد أمناً دولياً كاملاً، بل منظمة للأمم المتحدة، تساعدنا على درء الحرب وربما تجعلها أقل عنفاً وهمجية إذا نشبت.

إن رضانا أفراداً وجماعات عن إمكانات عقولنا وكفاءة أدائها، يعد خطيئة كبرى تستتبع عدداً من الأخطاء، ليس أكبرها سوء الفهم للواقع وسوء التعامل معه، والإعراض عن التحسين الفكري المطلوب بشدة لمواجهة ظروف تزداد قسوة وتعقيداً.




٢٢
التفكير التبريري



التفكير التبريري[1]

لا يثبت العقل قدرته وكفاءته على العمل في مجال كما يثبتها في مجال التعليل والتسويغ لأفعالنا ومواقفنا؛ فالطفل ابن الرابعة، يحاول أن يقنعك ببراءته من عمل غير مقبول ولا يُعرف فاعله. وأعتى المجرمين وأعظمهم أذية يجد دائماً ما يقوله في قاعة المحكمة. والذين يمارسون ذلك يوقعون الضرر بأنفسهم أولاً، حيث إن المسوغات التي يدلي بها المقصرون والمتورطون في جرائم، تستخدم مرتين: مرة عند التلبس بما يتطلب الاعتذار، ومرة عند ممارسة الاعتذار. وعلى مدار التاريخ كانت أكبر مشكلة تعاني منها النظم الأخلاقية في العالم كله مشتقة من قدرة العقل على تبرير الأمور الشنيعة، حيث إن من السهل أن يقول فلان من الناس: سرقت لأنني كنت جائعاً، وفلان لم يسرق لأنه لم يكن بحاجة؛ وأن يقول آخر: لم أصل أرحامي لأنهم انطوائيون ولا يرغبون في إقامة علاقات معهم؛ وأن يقول ثالث: قتلت فلاناً لأنه أغضبني إلى درجة أني فقدت وعيي ولم أشعر بما فعلت وهكذا.. وهذا في الحقيقة هو الذي يحوّل الأخلاق من أشياء مطلقة إلى أشياء نسبية، وهذا ما يذهب بالكثير من سلطانها على توجيه السلوك.

الهدف من وراء التفكير التبريري يتمثل على نحو أساسي في التهرب من المسؤولية عن التقصير في أداء واجب، أو في التهرب من المسؤولية عن عمل ما لا ينبغي القيام به. وبما أن كل واحد منا معرَّض للوقوع في هذا وذاك فإننا جميعاً

(١) الصواب اللغوي يقتضي أن نقول: (التسويغ) لكن ما يشفع لاستخدام (التبرير) سيرورة الكلمة ووضوحها.

نحسن فن التبرير، ونولد فيه أنماطاً وأفكاراً جديدة؛ لكن يزيد ذلك على نحو ظاهر حين يكون الأفراد أو الجماعات أو الشعوب في أزمة شديدة أو في حالة بائسة، إذ يكثر لديهم آنذاك التلاوم، وتقاذف المسؤولية، ويكثر معه التنصل من تلك المسؤولية عن طريق التبرير، وبهذا يمكن القول: إن التخلف بكل أشكاله يعد أفضل وسط لنمو بكتيريا التبرير!.

ولذا فإن التفكير التبريري يقوم على الدعامتين التاليتين:

١- ينطوي التفكير التبريري على نوع من الإحساس بالضعف، وهذا شيء طبيعي ما دمنا لا نلجأ إليه - غالباً - إلا عند وجود مشكلة. الناجحون والأقوياء لا يبررون، ولكن يشرحون أسباب نجاحهم، ويشيعون في الجو العام روح الاعتزاز والتفاؤل.

٢- يولد إدمان التبرير من الشعور بالدونية واحتقار الذات، اليوم لدى كثير من الخيّرين الغيورين، فهم يبررون تفرق المسلمين بهيمنة الغرب الذي لا يريد لنا أن نتحد. ويبررون تفوق اليهود بفلسطين - مع ضآلتهم - على العرب والمسلمين - مع كثرتهم - بدعم الغرب لهم. ويبررون التخلف العلمي والتقني في بلاد المسلمين بنهب الاستعمار لخيرات بلادنا وحجبه أسرار التقنية عنا. وهكذا إلى ما لا نهاية..!!

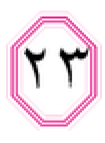
لا ريب أن شيئاً من هذه التفسيرات صحيح؛ لكن من شأن مدمني التفكير التبريري إهمال الدور الشخصي للأمة في كل ذلك، فهم حتى لا يتحملوا أو يحملوا البلاد الإسلامية أي مسؤولية، لا يذكرون القصور الذاتي للأمة على مستوى الفكر والاعتقاد، وعلى مستوى السلوك والعمل. ولست أدري كيف يمكننا أن نمارس النقد الذاتي ونحن نأبى وضع النقاط على الحروف في توضيح

دورنا في الأزمات التي نعيشها؟!

إن مما يجب تقريره هنا أن أزمات المسلمين ومشكلاتهم محكومة بنوعين من الشروط والمؤثرات: شروط ومؤثرات داخلية، وشروط ومؤثرات خارجية؛ وإن تأثير كل ما هو خارجي يظل محدوداً، ما لم يزحزح بعض الشروط والمؤثرات الداخلية، ويحل محلها؛ فحين يؤدي ضغط الغرب علينا إلى استلاب إرادة المقاومة، أو يؤدي إلى تقليده، أو إلى فساد أفكارنا وسلوكاتنا، فإن ضغوطه علينا تتحول من مؤثرات خارجية إلى مؤثرات داخلية، تعمل كما يعمل القصور الذاتي للأمة. إعطاء الأهمية الكبرى للمؤثرات الداخلية واضح في قول الله – جل وعلا –: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ١٦٥]،وقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].




٢٣
اللغة والتفكير
والانفعالات



اللغة والتفكير والانفعالات

جرت العادة أن ينظر الناس إلى اللغة على أنها أداة تواصل وتفاهم بينهم، وهذا صحيح لا ريب فيه، لكننا كثيراً ما نهمل علاقة اللغة بالأفكار ودورها في انحراف التفكير، وعلاقتها بالانفعالات والاستجابة لها.

والسبب في ذلك أن التفكير الخطي الذي أدمناه لا يتيح لنا رؤية أفضل من ذلك.

هناك إحساس عام بصعوبة توظيف اللغة والتعامل معها، لكن ذلك الإحساس يتركز غالباً على استخدام قواعد اللغة وإعراب مفرداتها؛ وقلما أحسسنا بالإشكالات الفكرية وأشكال المعاناة التي تسببها اللغة بوصفها كائناً تصعب السيطرة عليه، بسبب ما تتسم به من إبداع وتجدد والتباس بالمشاعر، وبسبب قدرتها على تزييف الفكر والاستجابة لعوجه وأَمْته. وسأسلط الضوء على هذه القضايا في المفردات الآتية:

١- قد كان الشافعي – رحمه الله – على صواب حين قال: «لا يحيط بلغة العرب إلا نبي». وليس مصدر ذلك في تقديري غزارة مفردات اللغة، وتنوع أساليب استخدام تلك المفردات على نحو جوهري، وإنما مصدره طبيعة التجدد المستمر في مدلولاتها، وما تتسم به من مرونة فائقة، وما تحمله من إمكانات

التنويع وضروب التفريع وأشكال التحول؛ مما يجعل الناس يشعرون بالضعف الشديد أمامها ويصابون باليأس من إمكانية السيطرة عليها والإحاطة بها. وهذه الخصائص موجودة في كل لغات العالم ولا سيما الحية منها، وإن اختلفت في مستوياتها.

٢- جهلنا بطبيعة اللغة يؤدي دائماً إلى سوء التعامل معها وسوء توظيفها واستخدامها. وطالما خدعنا جمود نحو اللغة وصرفها، وقواعد بلاغتها، فألقى غشاوة على أعيننا، وجعلنا نتعامل معها على أنها شيء ثابت، كما جعلنا نتعامل معها على أنها ذات منفصلة ومحايدة، نستخدمها كما نشاء، ونظل في منأى عن تأثيرها فينا. وليس شيء من ذلك صحيحاً.

إن جمود ظاهر اللغة يخفي وراءه فورة هائلة من الحركة والنمو والتحول في باطن اللغة. وإذا أردت التأكد من ذلك، فقارن بين قصيدة جاهلية وقصيدة عباسية، وأخرى معاصرة حيث سيستغلق عليك وعلى معظم قراء العربية المعاصرين كثير من مفردات القصيدة الجاهلية. ولو وضعت كل معاجم اللغة العربية بين يديك، ووقفت على معنى كل كلمة فيها، فستجد أنك لم تستطع اختراق حجبها والوقوف على مراد الشاعر على نحو واضح، وستجد أن القصيدة العباسية أقرب إليك. أما القصيدة المعاصرة فستكون - في الغالب - في متناول فهمك.

اللغة ليست أداة تواصل فحسب، بل إنها إلى جانب ذلك أداة لتشكيل مفاهيمنا، وتوجيه آليات التفكير لدينا. إن العقل يستخدم اللغة، وهي من جهتها تصنع العقل أيضاً، لأن العقل يدرك الأشياء من خلالها، كما أنها تصنع مشاعرنا وانفعالاتنا، كما سنوضحه. إنها كائن متحرك ملتبس، يقوم بأدوار

مزدوجة، وذلك هو سرّ زئبقيتها وقدرتها الهائلة على التفلت من التشكيل النهائي.

٣- اللغة أداة تعبير ناقصة، ومع أن أبنيتها الداخلية تتطور باستمرار، إلا أن تطور الفكر يظل أسرع من تطورها، ولهذا فإن كفاءتها في التعبير عما نريد تظل منقوصة. وهذا هو السبب في أننا طالما وقفنا حائرين وعاجزين أمام العثور على الألفاظ التي تعبر بدقة عما نريد. وإذا عثرنا عليها، فإن هناك شكوكاً كبيرة حول فهم السامع لحقيقة ما أردنا التعبير عنه. ولهذا قيل: «إذا شرحت فكرتك للناس عشرين مرة، ثم فهموها كما تريد، فأنت محظوظ». وما ذلك إلا لأن اللغة أثبتت عدم قدرتها على أن تكون مرايا صافية لأفكارنا، فهي لا تخلو من شيء من العتمة والتقعير والتحديب. حين يقول لك شخص: إن القناعة مجلبة للراحة، فإنك تفهم ما يريد فهماً سطحياً، وإذا جئت لتنفيذ قوله الجميل وجدت نفسك في متاهة، حيث لا تدري نوع القناعة التي يريدها، وما هي الحدود الفاصلة بين القناعة والكسل، وهل إذا عمل المرء عملاً ثانياً في المساء، بالإضافة إلى الوظيفة الصباحية ليؤمن عيشاً رخياً لأسرته، يكون قد خرج عن حدود القناعة، وجلب بالتالي لنفسه المتاعب؟ وإذا ترك العمل في المساء وقنع بمرتبه فهل المتاعب والمشكلات الأسرية التي سيواجهها ستكون أكثر أو أقل من متاعب العمل المسائي...؟

هذه تساؤلات وإشكالات تواجهنا حول عبارة نوافق غالباً على معناها العام، فكيف يكون موقفنا من عبارة لا تحظى بموافقتنا، كما لو وجدنا في أحد الكتب العبارة التالية: العقاب أفضل وسيلة لحفظ القانون والنظام؟

إن بعضنا - على الأقل - سوف يجادل في صحة هذه العبارة، وسيقول:

ليس بصحيح أن العقوبة تجعل الناس يلتزمون بالنظام، وإنما التربية والثقافة، فهما اللتان تجعلان الناس يحبون النظام، ويتقيدون به. أما العقاب فإنه ينفع بوصفه وسيلة استدراكية إذا استخدم مع الذين فاتتهم التنشئة الاجتماعية الصحيحة. ثم إن استخدام العقاب على نطاق واسع يجعل الناس يتعلمون التحايل على النظام مما يشيع في المجتمع الفساد الإداري والرشوة..

وهكذا فإن كلتا العبارتين تنقل رسالة غير صافية وغير حاسمة، كما أن كل مفردة استخدمناها فيهما تحتمل الكثير من المناقشة..

إذا أغمضنا الطرف عن مسألة الحجم والمقدار، فسوف نعثر على وجه آخر من وجوه إشكال اللغة، فإذا قال طفل لأمه: لا تفكري في أمر الغذاء، فقد اصطاد والدي قبل قليل سمكة. فإن من المحتمل أن تكون السمكة كبيرة وتكفي فعلاً لغذاء أسرة، ويكون تصرف الأم في ترك تدبير أمر الغذاء صحيحاً؛ كما أن من المحتمل أن تكون السمكة صغيرة جداً لا تكفي لغداء شخص واحد، فضلاً على أن تكفي لغداء أسرة، وذلك لأن عبارة الطفل لا تشير إلى أي الاحتمالين، فكأن الطفل لم يقل شيئاً!.

وأذكر أنه زارني أحد طلاب العلم، وحدثني حديث المعجب عن إحدى الكليات الشرعية الموجودة في أحد الأقطار الإسلامية النامية، وقد أفاض الرجل في نعت تلك الكلية على نحو يصعب وجوده إلا في دولة متقدمة وغنية.

ونظراً لثقتي في صدق ذلك الرجل، وشكي في وجود الكلية المذكورة في مثل ذلك البلد، أحببت أن امتحن دقة كلامه، فسألته سؤالاً كمياً يخرج حديثه من الوضع الكيفي القابل للكثير من وجوه التأويل، وقلت له: كم ميزانية تلك الكلية في السنة؟

فقال: مئتا ألف دولار. وهنا اتضح الأمر وانجلى. ومع إيماني بأن مقدار ما ينفق على الجامعات لا يعكس على نحو دقيق مدى رقيها وكفاءة عملها، إلا أنه مؤشر لا يستهان به، حيث لا يمكن توظيف أساتذة على مستوى عال إلا من خلال إنفاق سخي، كما لا يمكن توفير بيئة جامعية من غير تجهيزات كافية.

وهنا بدأت أوجه المزيد من الأسئلة الكمية، وبدأ المزيد من مبالغاته ينكشف للعيان!.

أما في حقل المعنويات، فإن كفاءة اللغة التعبيرية تكون أقل بكثير، ولا سيما حين نتحدث عن معان مجردة مثل الحب والكره والشجاعة والجبن والفرح والخوف والحزن وما شابه ذلك، حيث يكون التحقق من مطابقة فهمنا لما يقصده المتكلم أمراً أشبه بالمستحيل.

٤ – مفردات اللغة ليست مثل مجموعة من الأرقام أو الرموز التي نستخدمها في الجبر، فهي بسبب قصورها الذاتي وبسبب مرونتها الفائقة مستعدة لأن تحمل بأهوائنا وميولنا الذاتية، حيث يمكن أن نعبر عن رأينا في سلوك أحد الناس بتعبيرات يمكن شكلياً قبولها على أنها تصف الواقع على نحو جيد، لكنها في الحقيقة محمّلة برؤيتنا الخاصة ومتفاوتة تفاوتاً كبيراً، وهكذا فإنه يمكن لثلاثة أشخاص يرقبون سلوك شخص رابع أن ينعتوه بنعوت مختلفة، فيقول الأول: «إنه جامد الفكر». ويقول الثاني: «إنه عنيد» في حين يقول الثالث: «إنه حازم». إن السلوك واحد لكن هذه الكلمات ليست واحدة، فهي إلى جانب دلالتها على الحقيقة على نحو نسبي تدل على ظلال معينة لدى كل مراقب، أي أنها لا تدل على التقرير الموضوعي، ولذا فالمعنى الذي تشيعه هو خليط من المعطيات الموضوعية والذاتية، فعبارة «جامد التفكير» هنا تفيد الرفض القاطع الشديد

دون تفكير، على حين تفيد كلمة «عنيد» رفضاً أقل شدة. أما كلمة «حازم» فتفيد أنه ثابت مع قدر من الموافقة والرضا.

وهذا يدعونا إلى تحري الدقة في استخدام اللغة، والانتباه إلى التحيز الذي يساعدنا النظام اللغوي نفسه على الوقوع فيه.

٥- كما ألمحنا من قبل فإن اللغة هي الأداة الرئيسة التي نستخدمها في التفاهم والتواصل مع بعضنا، كما نستخدمها في عمليات التفكير، فنحن إذ نفكر نفكر بجمل وعبارات، ولكن للغة إلى جانب هذا وذاك وظيفة خطيرة، هي تشكيل الفكر نفسه، حيث إن من غير المستبعد أن تسهم الألفاظ والتعبيرات التي نستخدمها بكثرة في إيجاد أنماط فكرية تنسجم مع المدلولات العامة لتلك التعبيرات. وعلى سبيل المثال فإنه حين يقول قائد عسكري عن عدوه: إنه ليس من البشر، وليس إنساناً، ولا يستحق الحياة، وموته أنفع للبشرية من حياته.. إنه بهذه العبارة يسهِّل على جنوده عمليات القتل للأبرياء والنساء والأطفال الذين ينتسبون إلى ذلك العدو، حيث تصبح حرمة إنسانيتهم في مهب الريح. وهذا ما يفعله اليهود في فلسطين، حيث إنهم من خلال إعلامهم المركز ثبتوا في عقول جنودهم أن فلسطين أرض من غير شعب، لأنهم لا يعدون الفلسطينيين آدميين بمعنى الكلمة، مما جعل الجندي اليهودي يقتل الأطفال الرضع بدم بارد، وسهَّل ارتكاب كل أشكال الإيذاء ضد شعب أعزل!.

وقد استفاد اليهود هذا الأسلوب من الإعلام الأمريكي أيام حرب فيتنام، ومن سلوك الجنود الأمريكيين هناك، فحين اتُهم جندي أمريكي بإطلاق النار على بعض أولاد الفيتناميين ونسائهم وقتلهم، وقال مدافعاً عن ذلك العمل ومسوغاً له: «ولكن هؤلاء كانوا أعداءً ولم يكونوا ناساً».

اللغة والتفكير والانفعالات

اللغة تشكل فكر سامعها وفكر مستخدمها، على حد سواء، فالخبرة والثقافة التي تتعرض لها عقولنا، والتي تعطيها في النهاية القوام النهائي، تنتقل إلينا عبر اللغة بكل التباساتها وانثناءاتها، وبكل قدرتها على التفريع والتنويع والمخاتلة.

إن مراجعتنا للمفردات والأساليب التي نستخدمها، هي مراجعة لمقدماتنا الفكرية، وأساليب عمل عقولنا، وهذا مطلوب في كل الأمور، ولا سيما في مجال الاتصال بالناس، ومجال العلاقات بين الأمم والشعوب، وفي أوقات الأزمات خاصة.





٢٤ التعميم



التعميم

لا نستطيع أن نعيش في هذا العالم من دون تعميم، وذلك لأن عقولنا محدودة وحوادث العالم غير محدودة، حيث إن هناك الكثير الكثير من الوقائع التي تحدث في امتدادات زمانية ومكانية بعيدة عن حواسنا، ونحتاج إلى إصدار أحكام عليها، كي نوفر منطقة آمنة ومنتجة للتعامل معها. لا يمكن أن نجرب دواء ما على كل الناس حتى نسلّم بنجاعته في معالجة داء معين؛ ولذا فإننا نكتفي بتجريب الدواء على فئة محدودة من الناس، وحين تكون النتيجة إيجابية، فإننا نستطيع أن نصدر حكماً تعميمياً بنفع ذلك الدواء لكل من تتوفر فيهم الشروط المتوفرة في العينة موضع التجريب.

وكلما كانت تلك العينة كبيرة، كنّا أكثر اطمئناناً لسلامة أحكامنا، لأننا بذلك نصبح أكثر قرباً من الواقع. وكلما زادت درجة التعميم ازددنا بعداً عن الواقع؛ لأننا بذلك نوسع المساحة التي يشملها التعميم؛ ومع ذلك التوسيع تزداد بذلك درجة المخاطرة والمجازفة التي أقدمنا عليها. وإليك هذا المثال: حين أرى حصاناً يجر عربة، ويصعد منحدراً، فإني سوف أصف حالته بقولي: هذا الحصان يبذل جهداً لكي يصعد منحدراً. فإذا رأيت حصاناً ثانياً وثالثاً ورابعاً في الحالة نفسها فسوف أقول: جميع الأحصنة تُجهد حين تصعد منحدراً.

فإذا شاهدت حيوانات أخرى في الحالة نفسها وتكررت المشاهدة فسوف أقول: جميع الحيوانات تجهد حين تصعد منحدراً. فإذا ما لاحظت أن سيارة تجهد حين تصعد منحدراً فسوف أقول: هذه السيارة تجهد حين تصعد منحدراً،

فإذا رأيت قطاراً.. إلخ فسوف أقول: جميع المحركات تجهد حين تصعد منحدراً. فإذا ضممت هذه الحقيقة إلى الحقيقة التي استخلصتها من مشاهدة الحيوانات، فسوف أوسع دائرة التعميم لأقول: جميع التكوينات التي تسير تجهد[1] حين تصعد منحدراً.

هذه القاعدة الأخيرة أشد ابتعاداً من كل القواعد السابقة عن الواقع، لأنها شملت تكوينات أكثر من كل ما سبقها.

قد نلجأ إلى التعميم لأن التخصيص قد لا يكون له أي معنى، كما لو قلنا: بعض من لونهم أبيض لؤماء، أو نقول: بعض من لونهم أسود أغبياء، فنحن هنا لم نأت بجديد، لأن اللؤم والغباء موجودان لدى السود والبيض والحمر والصفر، فكأننا لم نفيد السامع بأي شيء.

وأخيراً، فإن بعض الناس قد يلجأ إلى التعميم من أجل تسويغ الفظائع التي يرتكبها، فإذا أراد أحد الناس تسويغ قتل قبيلة أو جماعة، أو أخذ أموالها وممتلكاتها قال: هذه القبيلة أو الجماعة كلها مجرمة، أو كلها معادية، ويكون في ذلك - عادة - الكثير من المجازفة والظلم والبغي.

يقوم التوسع في التعميمات على مدخل فكري خاطئ يتمثل في توهمنا أن الحجج العقلية والبراهين المنطقية كافية لجعل تعميماتنا صحيحة، مع أن الأداة الحقيقية التي تمكننا من معرفة مدى دقة تعميماتنا هي الإحصاء، والإحصاء وحده. إذا قلنا: إن كثيراً من ذوي الشعور الحمراء يميلون لأن يكونوا عدوانيين أكثر من غيرهم، كان علينا أن نعمد إلى الإحصاء والمقارنة.

ولنفرض في هذه الحالة أننا أخذنا عينة عشوائية مكونة من ألف شخص، وقسمناها إلى قسمين: قسم يشتمل على ٢٠٠ شخص من ذوي الشعور الحمراء، وقسم يشتمل على ٨٠٠ شخص من ذوي الشعر غير الأحمر، ثم

(١)طبعاً لك أن تتساءل عن طبيعة إجهاد الآلة وطبيعة إجهاد الحصان

قسمنا كل مجموعة من المجموعتين إلى مجموعتين أيضاً: مجموعة ذوي الأخلاق الحسنة ومجموعة ذوي الأخلاق السيئة. ثم وجدنا ٥٠ شخصاً من ذوي الشعر الأحمر سيئي الخلق، و١٥٠ من ذوي الأخلاق الحسنة. ووجدنا ١٠٠ شخص من ذوي الشعور غير الحمراء أخلاقهم سيئة، و٧٠٠ أخلاقهم حسنة - كان لنا أن نقول: إن نسبة ذوي الأخلاق السيئة بين ذوي الشعور الحمراء هي الربع، ونسبة ذوي الأخلاق السيئة من ذوي الشعور غير الحمراء هي الثمن. وبذلك تكون الملاحظة التي أبديناها صحيحة لأن نسبة من أخلاقهم سيئة بين ذوي الشعور الحمراء ضعف نسبتهم بين ذوي الشعور غير الحمراء.

إن الأمة تعاني اليوم من تسرع كثير من الناس إلى إطلاق الأحكام الكبيرة، والأحكام التعميمية دون أي خبرة، ودون أي وازع داخلي. وقد صار من المألوف القول: أبناء القبيلة الفلانية بخلاء، وأهل البلد الفلاني كسالى، وأبناء القطر الفلاني محتالون، أو لصوص، أو متفلتون وهكذا... ولذا ورد في الحديث الشريف: التحذير الشديد من تعميم الشتم، أو الهجاء بسبب عداوة ضيقة، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «أعظم الناس فرية لرجلٌ هاجى رجلاً، فهاجى القبيلة بأسرها».

إن استخدام ألفاظ مثل: غالب، وكثير، وأكثر، وقليل وأقل، يظل أقرب إلى السلامة من استخدام: جميع، وكل وعامة، لأن الأولى تترك مجالاً للاستثناء، والأخيرة وسَّعت دائرة الحكم والملاحظة.




٢٥
التفكير المبسط



التفكير المبسط

دعنا نقول: إن الحقيقة طبقات، بعضها فوق بعض، وإن الناس يتفاوتون في رؤية تلك الطبقات لأسباب عديدة. وحين ندرك شيئاً من الأشياء، فإن من الممكن أن ندرك نمطاً واحداً من أنماطه، وحينئذ فإن صورته التي تنطبع في أذهاننا تكون صورة مفردة، فإذا رأينا نمطين، أو ثلاثة أنماط بدأت صورته في أذهاننا تنحو منحى التركيب إلى أن تصل إلى التعقيد، والتعقيد الشديد.

ولنضرب مثالاً توضيحياً على ذلك: لنفرض أن شخصاً نشأ في غابة، كل أشجارها من أشجار الموز، وهو لم يغادر تلك الغابة، ولم يسمع أو يقرأ عن أي شجرة غير شجرة الموز، فإن هذا الشخص سوف تحتفظ ذاكرته بصورة واحدة عن جنس الشجر، هي صورة شجرة الموز. فإذا رأى شجرة برتقال انطبعت في ذاكرته صورة أخرى عن الشجرة مغايرة للصورة الأولى. إذا رأى شجرة تفاح انطبعت في ذهنه صورة ثالثة مغايرة لما سبق. ومن هذه الصور الثلاث تتكون في ذهنه صورة كلية عن الشجرة، لا تماثل أيّاً من أفرادها. ومجموعة المعلومات عن الشجرة مأخوذة من هذه الشجرات الثلاث، فهو بحسب الصورة المركبة المتحصلة لديه لا يعرف شجرة لا تثمر، ولا يعرف شجرة تثمر ثمراً مراً، ولا يعرف شجرة عملاقة يبلغ طولها ٢٠ متراً، وهكذا..

ويمكنك أن تعمم هذا المثال على أنماط الأقلام والسيارات والساعات

والكتب والأشخاص والدول والمعارك والأمراض..

وهذا يعني أن قلة معرفة الإنسان، ومحدودية خبراته تجعل تصوراته عن مفردات الوجود وأنماط الأشياء مبسَّطة، وتجعل أحكامه بالتالي أيضاً بسيطة.

كثيراً ما يكون صاحب التفكير البسيط أمياً، أو قارئاً نشأ في وسط لم تتأسس فيه تقاليد معرفية، وعادات فكرية قائمة على القراءة والكتابة، حيث لا يستخدم الناس في مواجهة المشكلات الطرق العلمية المتبعة في تحديد نوعية المشكلة وحجمها وتقصي أسبابها...

كما أنهم لا يستخدمون القلم والورق أثناء عمليات التفكير إلا قليلاً، وإنما يعتمدون على الذاكرة والتي تميل بطبعها إلى الاختزال والتخفيف من أثقال المعلومات، كما أنها تخون صاحبها وهو أحوج ما يكون إليها. وهب معي أن عبقرياً يملك فكراً متوقداً، لكنه أمي أو يعتمد في تفكيره على الذاكرة، فكر في مشكلة عويصة وتوصل إلى حل مؤلَّف من مئات الكلمات، فكيف يحتفظ في ذاكرته بذلك الحل الذي بذل جهداً عظيماً في التوصل إليه وصياغته. إنه في هذه الحالة سوف يختزله ويبسطه حتى يتمكن من الاحتفاظ به وشرحه.

ومن وجه آخر فإن التبسيط في الرؤى والأحكام والحلول قد ينشأ من تقليدية العقل واحتفاظه بعادات التفكير التي تعود إلى قرون مضت. وذلك إما يكون بسبب عدم تعريض الفكر والبنية الثقافية لتيارات الفكر والمعرفة الحديثة. ومن المعروف أننا كلما عدنا خطوة إلى الوراء، وجدنا المشكلات التي واجهت سابقينا أقل تعقيداً، كما أن الحلول التي طرحت لمواجهتها كانت كذلك أقرب إلى التبسيط. ولذا فإن الذين يحتفظون بعقلية تقليدية يجدون أنفسهم في حيرة شديدة تجاه المشكلات الحاضرة وكيفية التعامل معها؛ وما ذاك إلا لأن عتادهم

الفكري ينتمي إلى عصر، والمجالات التي يريدون استخدامه فيها تنتمي إلى عصر هو بالضرورة أرحب في آفاقه وأعقد في مشكلاته وأغزر في معطياته.

زيادة معارفنا بخصائص الأشياء وبالعلاقات القائمة بينها وبآثارها ومفرزاتها، دفعتنا إلى الاحتياط من إطلاق الأحكام دون تقييد وتمييز بين الحالات المختلفة، فنحن اليوم لا نستطيع أن نتحدث بكلمات قليلة عن تأثير المناخ، أو الغذاء الفلاني في صحة الإنسان؛ ولو فعلنا ذلك لكنا قد تجاهلنا الكثير من المعطيات الثابتة التي تجعل كلامنا غير دقيق؛ ولكن الناس لا يحبون التعقيد، ويملون من كثرة التفاصيل؛ ولذا فإن الذين يثقفون الفئات الشعبية يميلون إلى الاختزال والتبسيط حتى يوجدوا أرضية للتفاهم معها. ومن هنا نلاحظ أن أكثر الأفكار انتشاراً وإثارة تلك التي تختزل في شعارات ترددها الجماهير، مع أن تلك الشعارات تفتقر في غالب الأحيان إلى الدقة والموضوعية.

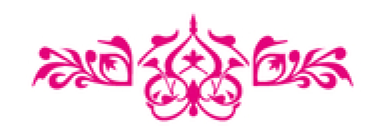
وإذا فرضنا أن العامة سمعوا أفكاراً معقدة، يبسِّطونها على طريقتهم الخاصة حتى يستطيعوا التفاعل معها.

ثمة سبب أخير مهم يكمن خلف انتشار التفكير المبسِّط، وهو أنه يقدم للناس معطيات يقينية، كما يقدم لهم منهجاً عملياً لمعالجة مشكلاتهم اليومية، إذ يكفي أن تسمع الأم أن سبب المغص في بطن ولدها هو البرد، وأن عليها أن تدفئه، حتى تسارع إلى علاجه. كما يكفي أن نقول للناس: إذا تعلم أولادكم حلت جميع مشكلاتكم حتى يقتنعوا بذلك، ويصرفوا النظر عن الحلول الأخرى. هذا على حين أن التفكير المعقد يقدم طرقاً واحتمالات واعتراضات وعقبات تجعل الإنسان العادي في حيرة من أمره. وهذه نقطة مهمة في الحقيقة، إذ مهما ألقينا من اللوم على التفكير المبسِّط، ومهما كلنا من المديح للتفكير المعقد،

فإنه لا بد لنا من أن نبحث عن طرق عملية تبعث الحماس في نفوس الناس نحو الحركة والانتاج، مع تحسين الخلفية النظرية الفلسفية لديهم حول طبيعة الحياة المعاصرة؛ لكن علينا بعد هذا وذاك أن ننبه إلى أن التفكير المبسِّط وإن أوحى للناس بسهولة الحركة وإمكانية التقدم، إلا أنه في مجال معالجة القضايا الكبرى ومجال العلاقات الدولية قد يؤدي إلى كوارث حقيقية، فحين نقول للأم: إن المغص في بطن ابنها بسبب البرد، وأن علاجه في الدفء أو بشرب شيء ساخن، ثم يتبين أن المغص بسبب التهاب حاد في الزائدة، أو بسبب نزيف في المعدة، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ قد لا يمكن إصلاحه.

وإذا قلنا للناس: إن تعليم أبناءهم سوف يحل كل مشكلاتهم، ثم وجدوا أن البطالة في صفوف المتعلمين أكثر منها في صفوف غيرهم فإننا سنصدمهم ونسبب لهم فيها بعد مشكلات كثيرة.

إن من شأن التقدم الحضاري أن يطرح المزيد من الأسئلة، ويقدم المزيد من التجارب والخبرات والمعلومات... وإن التعامل مع هذه المعطيات بتفكير مسرف في التبسيط سيجعلنا عاجزين عن الاستفادة من كل ذلك. وبذلك يكون علينا أن نعاني من كل مشكلات العصر دون أن نستفيد من إمكاناته وفرصه!.





٢٦

الاهتمام بالاستثنائي



الاهتمام بالاستثنائي

لا تملك عقولنا أية مخططات تهتدي بها للتفريق بين المطرد والشاذ والطبيعي والاستثنائي، لكنها تملك قدرات هائلة على تفخيم الأشياء الصغيرة، وزجها في بؤرة الشعور والوعي، فنعطيها كل عنايتنا واهتمامنا، كما أن لديها القدرة نفسها على تقزيم الأشياء الكبيرة العملاقة، فنغض الطرف عنها، ونهملها حتى كأنها ليست موجودة. والذي يضع كل تلك الأشياء في موضعها الصحيح هو الثقافة - بمعناها الواسع - وبما أن ثقافة الناس متفاوتة ومختلفة إلى حد بعيد، فإن اختلافهم في التعامل مع هذه الأمور أيضاً مختلف ومتفاوت.

إن عقولنا تشعر بالعجز تجاه استيعاب الواقع، ولذا فإننا نلجأ إلى تقسيمه وتفتيته، كما نلجأ إلى استخدام التعريفات كي نتمكن من القبض على الظواهر، وعزل بعضها عن بعض، لكن التعريفات تنطوي، دائماً على إهمال بعض ما ينبغي إدخاله تحتها، حيث يعسر علينا أن نحبس ذلك التنوع الهائل للكون داخل صيغة محددة. وانطلاقاً من كل هذا، فإن وجود الأشياء الاستثنائية التي تخرج عن المألوف، وتشذ عن القاعدة، وتفلت من قبضة التعريف، هو أمر طبيعي جداً في المسائل الإنسانية والحضارية عامة، لكن الذي ليس طبيعياً أن ننسى المطرد الذي يشكل البيئة التي نعيش فيها، ونحتفل بالاستثنائي الذي لا يعدو - حين ينزع إلى الخير - أن يشكل نوعاً من الوشي والتطريز على حلة مهترئة، كما لا يعدو - حين ينزع إلى الشر - أن يكون أكثر من ثقب صغير في

باب كبير!.

إذا تساءلنا لماذا نتعلق بالشاذ، ونترك المطرد، ولماذا نترك القاعدة ونتعلق بالمستثنى منها، أمكننا أن نعثر على الأسباب الآتية:

١- نحن نحتفي بالشاذ، ونبني عليه في بعض الأحيان لأنه جاءنا من طريق مباشر، أو لأنه مأخوذ من قصة حديثة وقريبة من الذاكرة. هب على سبيل المثال أنك قررت شراء سيارة من طراز معين، وقرأت في كل المجلات التي تعنى بشؤون السيارات ومواصفاتها، وحدث لديك اطمئنان لذلك الطراز الذي وقعت عينك عليه بعد أن درست الإحصاءات عن تكرر الإصلاح، وعن كمية الوقود التي تستهلكها وعن درجة الأمان المتوفرة فيها...

وبناء على كل ذلك عزمت على الاتجاه إلى أحد معارض السيارات لشراء واحدة منها، فإذا بجار لك والذي يملك سيارة من عين الطراز الذي تريد شراءه، يزورك فجأة، ويقص عليك حكاية معاناته مع سيارته، مما جعله يترك لديك انطباعاً بأنها سيارة سيئة وليس من الحكمة اقتناؤها.

إنك غالباً ستغير رأيك، وتعدل عن شراء ذلك الطراز إلى غيره، ضارباً بعرض الحائط كل التقارير والدراسات الموثقة التي قرأتها لتأخذ بكلام رجل تعرفه، وتثق به، ويمثل حديثه آخر ما يدخل إلى ذهنك حول السيارة المذكورة، مع أن هناك احتمالاً قوياً بأن تكون معاناة الرجل مع سيارته بسبب سوء استخدامه لها وإهماله لصيانتها، أو لكونها تعرضت لحادث كبير فيما مضى سبب خللاً كبيراً في تجهيزاتها...

٢- حين يجسد الاستثنائي أحلامنا وأوهامنا، فإننا نراه ونتعلق به ولا نرى الأشياء التي تمثل القاعدة أو الاطراد. وهذا واضح جداً لدى مدمني المقامرة عن

طريق ما يسمى بـ (اليانصيب)، حيث إن الذين يفوزون بجائزة لا يشكلون في كثير من الأحيان واحداً على ألف من الخاسرين، ومع ذلك فإن مدمني المقامرة لا يرون إلا ذلك الواحد، مع أنهم هم أنفسهم خسروا عشرات المرات، لكن في كل حالة خسارة يزداد تشوقهم إلى الربح. إنها الأوهام والأحلام بالفوز بضربة الحظ التي يؤمنون بها.

٣- يجذبنا الشيء الشاذ لكونه يمثل قيمنا ومبادئنا التي نتشوق إلى أن نراها واقعاً حياً. وهذا واضح جداً في تعلقنا بأخبار العظمة والبطولة التي نقرؤها في تاريخنا، ونسمع عنها في واقعنا، حيث إن وعينا يلتقطها من بين الكثير من الأخبار التي تدل على غير ما نحب، وانظر معي إلى ما نردده في مجالسنا بزهو وافتخار من أن الناس في زمان عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - قد استغنوا، وفاض فيهم المال إلى درجة أن المشرفين على شؤون الزكاة لم يجدوا فقيراً يستحق أو يقبل الزكاة، فرفعوا الأمر إلى عمر، فأشار عليهم أن يشتروا بها تحصل لديهم من أموال الزكاة عبيداً، ويقوموا بإعتاقهم.

ويعمم الناس هذه الوضعية على كافة أقطار ديار الإسلام، فهي في نظرهم ليست حالة خاصة حدثت في حي أو قرية أو مدينة، وإنما كانت سمة عامة في بلاد الإسلام آنذاك!!

ونحن إذ نفعل ذلك ننسى مئات الأخبار التي تتحدث عن وجود الفقر في حياة أعلام عاشوا في تلك الحقبة، كما هو مثبت في كتب السير والتراجم. كما أننا إذ نفعل ذلك لا نعمل عقولنا على الوجه الصحيح، ولا نتساءل: لماذا حدث ذلك؟

إذا كان حدث ذلك بسبب عدل عمر بن عبد العزيز وفضله وتقواه، فلماذا

لم يحدث ذلك في زمان من هو خير منه في كل هذا: في زمان النبي - ﷺ - وزمان الخلفاء الراشدين؟

وإذا قلنا: إن ذلك حدث بسبب السياسة الاقتصادية الرشيدة التي اتبعها عمر، فإننا نتجاهل سنن الله - تعالى - في طبائع الأشياء ومنطق تطورها؛ ومن المعروف أن الخطط الاقتصادية مهما كانت ممتازة لا تقلب حياة الناس من الفقر إلى الغنى خلال سنتين، أو ثلاث سنوات، وإنما تحتاج إلى مدة قد تصل إلى عشرين سنة. ثم إن الله - تعالى - جعل الفقر في هذه الحياة أداة ابتلاء كالغنى، ولذا فإنه لا يعرف قديماً أو حديثاً خلو بلد أو شعب منه.

٤- عقولنا - كما ذكرنا - تتهرب من التفاصيل، وتمل التقييدات وتميل إلى التعامل مع الأشياء غير المركبة. وهذا يعني أن مداركنا تلتقط الصورة المفردة وتتعامل معها على أنها أشياء مطردة. والشاذ في الخير والشر و الحسن والقبح والقوة والضعف... هو دائماً متفرد. وعلى سبيل المثال، فإننا إذا رأينا رجلاً قد بنى مسجداً، فإننا نعد ذلك العمل الخيِّر ملخصاً أميناً لكل سيرته الذاتية، ولا نتساءل في الغالب عن سلوكه الشخصي ومدى استقامته، ولا عن الأموال التي أنفقها في بناء المسجد، والتي قد تكون من كسب محرم، وهكذا...

٥- أهم ما يسهّل علينا التعلق بالأمور الاستثنائية وإهمال الأمور الطبيعية والمطردة، غياب الإحصاءات التي توضح حجم الظواهر، وتجعل الوعي يتعامل معها على أنها أشياء ملموسة ومحددة؛ إذ من السهل في غياب الإحصاءات أن نحكم على أهل بلد لا نسكن فيه بحسن الخلق إذا اجتمعنا بعشرة من أبنائه من ذوي الأخلاق الحسنة.

وما ذلك إلا لأننا لا نعرف ماذا يمثل هؤلاء العشرة بالنسبة إلى أصحاب

الأخلاق السيئة من أهل ذلك البلد. كما يسهل علينا أن نحكم على أهل بلد بسوء الأخلاق، إذا ساقتنا الأقدار للتعرف على عشرة من أشرارهم، وهكذا... وأشعر اليوم أن وعينا بمسألة الاطراد والشذوذ، بدأ يتحسن، لأننا صرنا نكثر من قولنا حين يجري الحديث عن نمط معين: وماذا يمثل ذلك بالنسبة إلى المجموع؟

التعلق بالشاذ وبناء التصورات عليه، يسبب لنا أضراراً هي أسوأ مما نظن، ويكفي أن خرجنا من دائرة المعقول إلى دائرة (اللامعقول)، ويحشو عقولنا بالأوهام التي لا ندري متى وكيف تتحقق؟ وإن إيقاظ قوانا العقلية ضروري جداً للفكاك من الوقوع في مصيدته، كما أن تحويل لغتنا الكيفية والعائمة إلى لغة كمية رقمية يساعدنا على نحو ممتاز على وضع الأمور في نصابها.




٢٧
التفكير العجول



التفكير العجول

السرعة والبطء شيئان نسبيان، يختلف تقديرهما من شخص إلى شخص، ومن موقف إلى موقف آخر، لكن المعروف أن الأناة في وقت التخطيط وتحديد الأهداف ممدوحة. والسرعة في التنفيذ أيضاً شيء ممدوح، لكن يبدو أن معظم الناس لا يملكون ما يساعدهم على التفريق بين الأمرين؛ فالإنسان العجول المتسرع عجول في كل شيء. والإنسان المتأني البطيء، بطيء في كل شأن. وهذا شأن الإنسان الخام، الذي لا يسيطر وعيه إلا على جزء يسير من سلوكه وتحركاته. وبما أننا نتحدث هنا عن عيوب التفكير وأخطائه، فلنسلط الضوء على العجلة في التفكير، ولنترك ما عداها.

التسرع في التفكير يظهر في مجالين أساسيين:

مجال الاتصال بالناس، وتحديد الموقف من كلامهم ومقولاتهم. ومجال الإنجاز الشخصي. ولعلي هنا أوضح سمات صاحب التفكير العجول في المفردات الآتية:

١- يتسم صاحب التفكير العجول بسرعة التصديق للأفكار والخطوط البيانية الجديدة؛ فهو ما إن يسمع فكرة من الأفكار الجديدة حتى يلتقطها، ويبدأ بخضها والبناء عليها.

مع أن معظم الأفكار الجديدة تظل موضع شد وجذب بين العلماء فترة طويلة من الزمان حتى تختبر وتبلور ويجري تشذيبها، وإدخال بعض التعديلات عليها

وفي النهاية قد تقبل، وقد ترفض وتنبذ. ولذا فإن على المرء أن يتقبل الأفكار الجديدة في البداية على أنها وجهات نظر شخصية قابلة للنقاش، ثم يعمل فيها ذهنه عبر رؤيته العامة للحياة وينظر أيضاً إلى موقف المختصين والباحثين منها ثم يتخذ الموقف النهائي .

٢- صاحب التفكير العجول لا يناقش الكلام الذي سمعه بعقلانية، وإنما تغلب عليه العاطفة، فإذا كان ما يسمعه موافقاً لمزاجه وهواه قَبله دون إعمال الفكر فيه. وإذا خالف مزاجه اتخذ منه موقفاً سلبياً سريعاً. إنه وهو يسمع لايفكر فيما يسمع، وإنما ينشغل بإلحاح عواطفه عليه، وبذلك تكون فائدته مما يسمع محدودة.

٣- صاحب التفكير المتعجل لا يسمع ما يقال حقيقة، وإنما يسمع ما يحب أن يسمعه، ولذا فإن له دائماً تأويلاً خاصاً للكلام الذي يقال.

وهو لذلك قد لا ينتظر المتكلم حتى ينتهي من الجملة التي ينطقها، وإنما يكملها له من عنده، وكثيراً ما يكون ذلك التكميل غير منسجم مع ما يريد المتكلم قوله، فيقع المتكلم والسامع في الحرج!

٤- لا ينتبه صاحب التفكير العجول للرسائل غير اللفظية التي يرسلها المتكلم من تعابير الوجه، وحركة الرأس واليدين، ونبرات الصوت.. مع أن المعاني التي يرسلها المتكلم من خلال هذه الحركات والوضعيات لا تقل شأناً عن المعاني التي يحملها لكلماته؛ فالنظام الصوتي للغة والمعاني المعجمية للكلمات، ليست كافية للتعبير عن جميع المعاني والأفكار والمشاعر التي نريد إيصالها للسامع، كما أنها غير كافية لإعطاء عباراتنا النكهة الخاصة بنا؛ ولذا فإننا نلجأ إلى أدوات تعبير إضافية تقوم بما عجزت الكلمات عن القيام به. إن العجلة

هي التي تحرم السامع من الاستفادة الكاملة مما يقوله المتكلم.

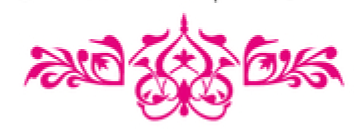
٥- حين يقع صاحب التفكير العجول في مشكلة، فإنه لا يفكر في نوعية المواجهة لها، ولا في الحلول التي يمكن أن يستخدمها في معالجتها، حيث لا يجد الوقت الكافي لذلك ولذا فإنه يظل مرتبكاً حائراً، وقلما يحصل على شيء.

٦- صاحب التفكير العجول رجل عملي، يغلب عليه حب الحركة ولا يعطي للتنظير والتخطيط الأهمية التي يستحقانها. وهذا يجعله يبدأ بالعمل، ويندم عليه، ويبدأ بالعمل ولا يكمله. وكثيراً ما يجد الطرق أمامه مسدودة؛ كما أن إنتاجيته تكون ضعيفة، وقدرته على التطوير محدودة.

٧- تغلب النمطية والقولية على صاحب التفكير المتسرع، فهو قد تعود اتباع طرق تقليدية في إنجاز أموره والوصول إلى أهدافه. وحين تعرض عليه بدائل أو طرق جديدة فإنه في الغالب لا يأبه بها.

٨- ينغمس صاحب التفكير العجول في أعماله، وقد يؤديها بكفاءة ومهارة، لكن يغلب عليه ضعف الإحسان بأهداف العمل وغاياته، فهو لغلبة النزعة العملية عليه، لا يجد لديه القابلية ولا الوقت للتبصر في مدى تحقيق أعماله لأهدافه في الحياة؛ إنه يفقد الانسجام والتناسق بين حاضره ومستقبله.

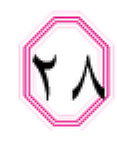
في زماننا هذا صار كل شيء معقداً، وصار اتخاذ القرار يحتاج إلى الكثير من الحذر والاحتياط، حيث المخاطر جمة والمنزلقات كثيرة. وإن الذين يشعرون بهذا قد يدفعون ثمناً غالياً يجر عليهم الشقاء والإفلاس!.





٢٨

رؤية الأشياء من وجهة نظر خاصة



رؤية الأشياء من وجهة نظر خاصة

كم يكون سيئاً أن يعتقد الواحد منا أنه الأصل وباقي البشر صورة، وأنه المركز وباقي الناس حواشٍ وحواف؟!

وكم يكون سيئاً أن تصبح هذه العقيدة شيئاً عاماً، فيعتقد كل واحد من الناس أن رؤيته للأشياء هي الصحيحة، وأن على باقي الناس أن يوافقوه على ما يرى، وإلا فإنهم على خطأ أو ضلالة!!

من النادر ألا يقع الواحد منا في هذا الخطأ في لحظة ما؛ حيث إن عاداتنا الفكرية ومألوفاتنا تجعلنا دائماً نتمحور حول أنفسنا - بالمعنى الواسع لهذه الكلمة - وننظر إلى ما نستحسنه على أنه حسن حسناً مطلقاً، وما نستقبحه على أنه قبيح قبحاً مطلقاً.

وهذه النظرة في الحقيقة نابعة من تجذر معاني الطفولة في الشخصية، ومن تمدد روح الأنانية وسيطرتها على الذات.

الرؤية الإسلامية في هذا الشأن واضحة، حيث إن دائرة المباح واسعة جداً، حتى قالوا: إن الأصل في الأشياء الإباحة. وحين يكون الشيء في دائرة المباح، فإنه ليس لأحد أن يستهجن فعله أو تركه. وهكذا ما كان تعدده من قبيل اختلاف الأذواق والمألوفات والمرئيات، حيث ليس لمن يكره لبس اللون الأزرق أن ينكر على بعض الناس حبه له؛ كما أنه ليس لمن يحب نوعاً معيناً من

الطعام أن يستنكر اشمئزاز نفوس بعض الناس منه.

وطالما استنكر سكان كثير من المناطق الداخلية بعض المأكولات البحرية التي يفضلها سكان المناطق الساحلية لعدم إِلْفِهِمْ لها.

ليس لأحد أن يجبرني على استساغة نوع معين من الطعام، وعلى استحسان نوع معين من الأثاث، أو الثياب، من أفق رغباته الخاصة؛ كما أنه ليس لي في المقابل أن استهجن صنيع غيري في هذا الشأن. ونحن نذكر صنيعه -ﷺ- حين وُضِع الضب بين يديه، فإنه لم يمد يده إليه وعلل ذلك بقوله: «لم يكن في أرض قومي فأجد نفسي تعافه» لكنه -ﷺ- لم يحرم أكله، ولا وبخ من أكله أمامه، ولم يستهجن فعله.

والآن لعلنا نوضح سمات الذين يرون الأمور من وجهة نظرهم الخاصة عبر النقاط الآتية:

١- يخلط المبالغ في الاعتداد برؤيته الخاصة بين التمسك بالمبادئ والأحكام المتفق عليها، والحقائق العلمية من جهة، وبين الأفكار والاجتهادات والفرضيات التي ما زالت موضع جدل وأخذ ورد من جهة أخرى، فهو لا يملك الشفافية الكافية للتفريق بينهما، وذلك بسبب فقده للمرونة الذهنية وبسبب جهله بطبائع الأشياء وطرق ثبوت الأفكار. ومن هذا القبيل النزاعات المريرة التي وقعت بين أتباع المذاهب الفقهية والنحوية والسلوكية... ومن هذا القبيل أيضاً ما يقع بين العاملين في حقول الدعوة والإصلاح، مما تأطرت أفكارهم وأساليبهم بإطار أهل السنة والجماعة، حيث إن ما بينهم من شحناء وخصومة يدل على وجود الخلط الذي أشرنا إليه.

إن الأمور القطعية والحقائق العلمية تكون ذات وضعية واحدة بالنسبة

إلى جميع الأشخاص، كما هو الحال والشأن في أركان الإسلام، وفي المحرمات حرمة قطعية، مثل الربا والزنا وشرب الخمر... أما الأمور الخلافية فتختلف باختلاف وجهات النظر، كما هو الشأن في المسائل الفرعية ذات العلاقة بالواجبات والمحرمات. وأمور الفقه والدعوة ألصق بالفرعيات منها كما هو معلوم.

٢- المعتد برؤيته الخاصة للأشياء، يأنس بوجهات النظر التي تؤيد رؤيته على مقدار ما يستوحش من وجهات النظر الأخرى، ويترتب على هذا عدد من الأمور، منها:

أ- لا يطلع إلا على الكتب والدراسات والأقوال التي توافق وجهة نظره الخاصة، وينظر إلى ما يعارضها نظرة ارتياب وشك.

ب- ينفر من الدراسات المقارنة التي توضح ميزات المذاهب والأفكار وعيوبها، وتقوم بعمليات موازنة بينها؛ وذلك لأنه لشدة إيمانه برؤاه الخاصة لا يرى أية فائدة في الاطلاع على ما يخالفها، وأحياناً يبتعد عن الاطلاع على الأفكار الأخرى مدفوعاً بخوف غامض.

جـ- تكون علاقاته بالناس محدودة، فهو حتى يحافظ على أفكاره ومألوفاته يحوطها بشيء من العزلة، ويجد خير وسيلة لذلك أن يقيم علاقات حميمة وعميقة مع من يشاركونه في آرائه وطروحاته. ولو أننا نظرنا في تاريخ العلوم، وتاريخ المذاهب والنحل، لوجدنا أن النمو في الخفاء من أهم العوامل التي أتاحت للآراء والأفكار الخاطئة البقاء والاستمرار ، ولولا ذلك لاختفت واندثرت منذ آماد بعيدة.

٣- لا يحترم شديد الاعتداد برؤيته الخاصة كلام أهل الاختصاص، فإذا

كانت فكرته على علاقة بالفقه قال لك: ما أراه وأعتقده مما لا يعرفه فقهاء زماننا، ومما لم يطلعوا عليه أو يهتموا به.

وإذا كان ما لديه من مقولات على علاقة بالطب رفض قول الأطباء، وصار يشكك في علومهم ونزاهتهم، وهكذا... مع أن الخبرة تفيدنا بأن أهل الاختصاص مهما جانبوا الصواب في مسألة من المسائل يظلون أقرب إلى الحق والحقيقة من غير المختصين.

قد آن الأوان لمراجعة أصول التفكير لدينا، والاستفادة من العلوم والمعطيات الجديدة في تعديل العديد من وجهات النظر التي تمسَّكنا بها، بناء على ظنون وأوهام، أو بناء على قراءات ناقصة لواقع الحياة.




٢٩
الانخداع
بالصدق الشكلي



٢٩ الانخداع بالصدق الشكلي

حين تكون في صحراء ليس فيها أي طريق يمكن أن تسلكه إلى البلد الذي تقصده، فإن عليك أن تتخذ خارطة أو دليلاً حاذقاً، وإلا تهت وقضيت جوعاً وعطشاً. وقد انفتح أسلافنا على المنطق اليوناني، ورأوا فيه ذلك الدليل الذي يرشد العقول، ويساعدها على العمل دون أخطاء. ولذا قالوا: المنطق يعصم الأذهان من الخطأ، كما يعصم النحو الألسنة من اللحن. وقد فتن علماؤنا القدامى بالمنطق اليوناني، إلى درجة إسقاط بعضهم للجاهل به من سجل المثقفين الموثوقين.

ولهذا تعلق به علماء الإسلام في تخصصات عدة، وبثوه في كتبهم، كما هو الشأن في كتب العقيدة، والأصول، وكتب العربية...

ولسنا وحدنا الذين رجونا من المنطق اليوناني أكثر مما يمكنه أن يقدمه لنا؛ فالأوروبيون أصيبوا بعين ما أصبنا به، ولم تتقدم أوروبا إلى أن وضعت المنطق اليوناني خلف ظهرها. وأعتقد أننا بدأنا نقتنع بذلك، وإن كان معظم المدارس الشرعية في العالم الإسلامي ما زالت متمسكة به تقليداً لأوهام الأقدمين. ونحن الآن لا نعول كثيراً على المنطق اليوناني، لكن اهتمامنا به عبر عشرة قرون أوجد في ذهنيتنا بنية عميقة تستجيب له وتتناغم معه.

القياس أجلى ما احتفظنا به من ذلك المنطق، وهو يؤمِّن لنا - كما سنوضح

- صدقاً شكلياً تصل دقته إلى دقة المعادلات الرياضية. وقد أمكنه أن يقعدنا عن البحث في صحة المضامين والمعاني، التي اعتدنا صياغتها - على نحو مباشر وغير مباشر - في مقدمتين ونتيجة، وانتشر لدينا بذلك عدد ضخم من المقولات التي حازت الصدق الشكلي، لكن مضامينها غير صحيحة، أو غير دقيقة. إذا قلنا: كل طفل نام، وخالد طفل كانت المحصلة هي الحكم لخالد بأنه نام وهذا القياس صادق شكلاً ومضموناً. لكن إذا قلنا: كل إنسان ذكي، وسعيد إنسان، كانت النتيجة: سعيد ذكي. فإن هذا القياس صادق شكلياً؛ فما دمنا قد حكمنا لجميع بني الإنسان بالذكاء، وما دمنا لا نرتاب في أن سعيداً من بني الإنسان، فلماذا لا يكون إذن ذكياً؟ لكن الخلل هنا في المضمون؛ إذ إن في بني الإنسان من هو ذكي ومن هو غبي. ونحن حين رفضنا ما أدى إليه القياس اليوناني هنا، لم نعتمد على المنطق، بل إن المنطق نفسه لا يسعفنا في فحص هذا المضمون، وإنما اعتمدنا على معلومات خارجية، حتى إن الجاهل بتفاوت القدرات الذهنية لدى بني الإنسان، يتقبل النتيجة التي أفادتنا بذكاء خالد. وهذا يعني أن عدم فحصنا لكثير من المضامين والمعاني، التي صبت في قوالب منطقية، لا يعود إلى ما أوحى به القياس من الصدق، وصحة الارتباط بين المقدمات والنتائج، وإنما يعود إلى أمر آخر هو الجهل، فعد تأثر الإنسان بالمنطق اليوناني لا يجعله مؤهلاً لإدراك صحة المعاني السيارة، وإنما لا بد من العلم والمحاكمة العقلية الجيدة.

وإليك ثلاثة أمثلة توضيحية على هذا:

١- تقول لأحد الناس: أكرمت صديقي محمداً، وأعطيته كذا وكذا.. فيقول لك أحد السامعين: «اتق شر من أحسنتَ إليه».

هذا القول في الحقيقة مستنسل من ترتيب منطقي معين يقوم على الآتي:

إذا أحسنت إلى شخص فاحذر شره، وما دمت قد أحسنت إلى محمود، فعليك أن تحذر شره. وهذا غير صحيح، فليس كل من نحسن إليه يمكر لنا، ويضمر لنا الغدر والأذية، بل العكس هو الصحيح، حيث إن معظم الناس يحاولون مكافأة من أحسن إليهم، ويرجون له الخير.

٢- تشكو امرأة إلى جارتها مرض ابنها، فتقول لها الجارة: البرد سبب كل علة. وهذا القول جزء من قياس مضمر. ولو أرادت تلك المرأة بسط كلامها لأفادتنا بالآتي:

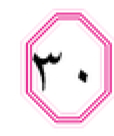
البرد سبب كل علة، وابنك عليل. إذن البرد سبب علة ابنك. هذا الكلام مقبول شكلياً، لكن كل الخبرات الطبية تؤكد عدم صدقه.

٣- تقول لشخص: فاضل يعامل أبناءه بقسوة. فيقول لك: من ربَّاه أبواه بقسوة، ربَّى أبناءه بقسوة. وهذا ليس بدقيق، إذ قد يقسو المرء على أبنائه في التربية لأسباب أخرى غير طريقة تربية أبويه له.

خلاصة ما أردت قوله هنا، تتركز في التنبيه إلى الحرص على عدم الانخداع بالارتباط المنطقي بين المقدمات والنتائج، لأن صدق ذلك الارتباط لا يغنينا شيئاً إذا كانت المضامين الموجودة في المقدمة الأولى أو الثانية غير صحيحة.




٣٠
ضعف
القدره على التجريد



ضعف القدرة على التجريد

من نعم الله – جل وعلا – على الإنسان، أن متّعه بالقدرة على التخيل، والتجريد، واستشفاف آفاق خارجة عن حدود معارفه وخبراته.

وهذه النعمة تشكّل أحد أهم الفوارق بين الإنسان والحيوان. وبنو الإنسان أنفسهم يتفاوتون تفاوتاً ذا معنى في هذه القدرات. وهذا التفاوت مصدر عظيم من مصادر تفاوت رؤيتهم الخاصة للذات والآخر والحاضر والمستقبل..

القدرة على التجريد تعني القدرة على صناعة المفاهيم والتعامل مع أفكار وخبرات خارجة عن إطار المعايشة اليومية، وعن المعرفة الشخصية.

من خلال التجريد يعزل المرء نفسه عن الظروف الحاضرة، ويزجها في ظروف أخرى يتخيلها، ويشكل لنفسه سلوكات واستجابات تتناسب مع تلك الظروف. وهذا ما تغطيه جزئياً كلمة (تخطيط).

ولذا فإن ضعف القدرة على التجريد لدى شخص ما، لا يوجد لديه ارتباكاً في التعامل مع الأشياء المستقبلية فحسب، وإنما تحط من مستواه بوصفه إنساناً متميزاً عن باقي الحيوان.

ولعلي هنا ألمس بعض الأفكار والمفاهيم التي تتعلق بضمور القدرة على التجريد، والمشكلات التي تترتب على ذلك الضمور على النحو الآتي:

١ – تترك الأمية بصماتها على مسألة قدرة الإنسان على التجريد والتخيل، حيث إن المعلومات المنظمة التي نحصل عليها من خلال ممارسة القراءة والكتابة

تشكّل ذخيرة ممتازة للعقل، حيث توسع المدى الذي يمكن أن يتجاوزه بعيداً عن المحسوسات والمعطيات الجاهزة، حتى إن الأمي ونصف الأمي حين يستخدم بعض المفاهيم يستخدمها في أطر موقفية وإجرائية ملتصقة بالواقع أو قريبة منه. ولهذا فإن الأميين وأشباههم يكرهون (التفلسف) ولا يهتمون بالأشياء غير العملية كما أنهم يعجزون في الغالب عن صياغة تعريفات جامعة مانعة للأشياء التي يصفونها. وهذا كله إن دل على شيء، فإنما يدل على الأضرار البالغة التي تلحق بنا، نتيجة هجر الكتاب ونتيجة الإعراض عن التثقيف الجيد.

٢- الضعف في القدرة على التجريد يسبّب إشكالاً ثانياً، لا يقل خطورة عن الإشكالات السابقة، وهو العجز عن النقد الذاتي: أي توضيح ميزات الذات وعيوبها، وتبيين موقعها على خارطة الجماعة، أو المجتمع. وذلك لأن النقد الذاتي يتطلب نوعاً من تفكيك المشهد، وأن يقسم الإنسان ذاته إلى قسمين:

ذات ناقدة وذات منتقدة، كما أن عليه أن يستجلي المعايير المختلفة التي على أساسها سيتم النقد. إن ذلك يعني أن يقوم الواحد منا بدور الحجر والنحّات في آن واحد. ولهذا فإن كثيرين من أولئك الذين يعانون من ضعف التجريد يرون من غير الملائم أن يقوِّم الإنسان ذاته، وإذا طلب من أحدهم ذلك قال: أنا لا أدري، اسأل الناس.

وربما كان ضعف التفكير النقدي لدى بعض الناس مسبَّباً عن شيء آخر، هو عدم قدرة الشخص على مقاومة سيطرة انفعالاته عليه، فالمعجب بنفسه يصعب عليه العثور على وجوه قصورها، والمصاب بمرض احتقار الذات، يصعب عليه العثور على ميزاتها.

ويبدو أن مشكلة ضعف النقد الذاتي على صلة بانتشار الأمية أيضاً، حيث

إن جمود النظم والمشكلات مما تتميز به المجتمعات التي تنتشر فيها الأمية، على عكس المجتمعات التي تنتشر فيها القراءة والكتابة. وذلك الجمود يشجع على ترك كل شيء على ما هو عليه.

٣- يؤدي ضعف القدرة على التجريد لدى الإنسان إلى العجز عن التخطيط الجيد، حيث إن عملية التخطيط تقوم على التعامل مع أشياء تقديرية وتجريدية غير محسوسة، ابتداء من إدراك كثير من المعطيات الجاهزة التي ستستخدم في الخطة، وانتهاء باستشفاف الظروف المستقبلية التي ستحيط بعملية التنفيذ.

التخطيط يتطلب تصورات معقدة لأحداث يمكن أن تقع، ومشكلات يمكن أن تطرأ، ونظم يمكن أن تتغير، ومدى تأثر كل ذلك في نجاح الخطة. وكل هذا يتطلب درجة عالية من التجريد. وهو ما يعجز عنه أصحاب العقول الكليلة.

إن للخيال النشط، والقدرة على التعامل مع الرموز والأشياء التقديرية فضيلة عظمى، لا تقل شأناً عن فضيلة النزعة العملية وحب الممارسة والانخراط في الواقع، وإن الموفّق من يستطيع أن يعطي كلاً منهما ما يستحقه من عناية واهتمام.

والله ولي التوفيق، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



مراجع الكتاب

١- اغتيال العقل، د. برهان غليون، بيروت - دار التنوير طبعة ثانية عام ١٩٨٧.
٢- تشكيل العقل الحديث، تأليف كرين برينتون - الكويت سلسلة عالم المعرفة العدد: ٨٢ عام ١٤٠٥.
٣- تعليم التفكير، د. فتحي جروان، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي طبعة أولى عام ١٤٢٠.
٤- التفكير العملي، د. إدوارد دي بونو، أبو ظبي - المجتمع الثقافي طبعة أولى ١٩٩٧.
٥- التفكير المستقيم والتفكير الأعوج، تأليف د. روبرت ثاولس ترجمة حسن الكرمي، الكويت - سلسلة عالم المعرفة.
٦- ديكارت والعقلانية، تأليف جنيفان لويس، ترجمة عبده الحلو، بيروت - دار عويدات طبعة رابعة عام ١٩٨٨.
٧- الشفاهية والكتابية، تأليف والترج. أونج. ترجمة حسن البنا عز الدين، الكويت - سلسلة عالم المعرفة طبعة أولى عام ١٤١٤هـ.
٨- عقل جديد لعالم جديد، تأليف روبرت أورنشتاين وبول إيرليش، ترجمة د. أحمد مستجير، أبو ظبي المجمع الثقافي طبعة أولى ١٩٩٤.
٩- الماهية والعلاقة، د. علي حرب، بيروت - المركز الثقافي العربي الطبعة الأولى عام ١٩٩٨.
١٠- معايير الفكر العلمي، تأليف جان فورا ستيه، ترجمة فايز كم نقش، بيروت - عويدات طبعة ثانية عام ١٩٨٤.
١١- وحدة الوجود العقلية، تأليف عبد الجبار الوائلي، بيروت - عويدات عام ١٩٨٣.

فهرس الموضوعات

من آثار المؤلف

١. فصول في التفكير الموضوعي، دمشق، دار القلم، طبعة ثالثة.
٢. تجديد الوعي، دمشق، دار القلم.
٣. عصرنا والعيش في زمانه الصعب، دمشق، دار القلم، طبعة أولى.
٤. نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
٥. من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
٦. مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
٧. مدخل إلى التنمية المتكاملة، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
٨. حول التربية والتعليم، ، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
٩. رؤى ثقافية، الرياض، دار مسلم، طبعة أولى.
١٠. في إشراقة آية، أبها، دار هجر، طبعة أولى.
١١. القراءة المثمرة، دمشق، دار القلم، طبعة ثانية.
١٢. العولمة، عمّان، دار الأعلام، طبعة ثانية.
١٣. اكتشاف الذات، عمّان، دار الأعلام، طبعة أولى.
١٤. دليل التربية الأسرية، عمّان، دار الأعلام، طبعة أولى.







الأردن – عمان – العبدلي – مركز جوهرة القدس – الطابق 2 – مكتب 605

تلفاكس 4657468 – 06 ص.ب: 927563 عمان 11190 الأردن

E-mail: al_aalam@yahoo.com

